شيرهان البابلي

أنفاس إيليا
مجموعة قصصية

الحقوق محفوظة

أنفاس إيليا
مجموعة قصصية

شيرهان البابلي

الحقوق محفوظة

ومن الأزقة القديمة إلى أصوات الحرية، تبقى في الأصوات أنفاسًا لا تنطفئ"

شيرهان_البابلي

1-الأرض التي لا تهدأ

مدينة يبوس (القدس) - عام 1200 قبل الميلاد تقريبًا

كانت الشمس تنساب بين أغصان الزيتون، ترسم ظلالًا متشابكة على أسوار يبوس العظيمة.. على أطراف المدينة، كان الكنعاني إيليزار يجلس على حجر مرتفع يراقب حقوله.. أيدي الفلاحين تعمل بهدوء، تقطف ثمار العنب والزيتون التي جعلت كنعان تُعرف بجنتها الخضراء.

- أيها الرجل الطيب، متى ينتهي الحصاد؟

جاء الصوت من بعيد، فرفع إيليزار رأسه ليرى الفتى عكير، الذي كان ينقل الحبوب إلى السوق وقال له:

- الحصاد لا ينتهي، يا بني.. الأرض تعطينا دائمًا، لكننا لا نعرف متى تكفّ عن ذلك.

في يبوس، كان الجميع يعيشون في تناسق مع الأرض.. السوق مكتظة بالتجار.. الفينيقيون يجلبون الأصباغ، والمصريون يحملون البردي، وسط كل هذا، كانت العائلات الكنعانية تعيش حياتها اليومية، تصلي للآلهة بعل وعشتار، وتزين معابدها بالفخار المنقوش.

في البادية الشاسعة، كان يعقوب بن شاحر يقود عائلته وسط القطيع، يتبع آثار الرياح على الرمال.. قال يعقوب لنفسه، بينما ينظر إلى ابنه البكر يوآف الذي سار بجواره:

- لا شيء هنا إلا الجوع والصبر
- إلى متى سنظل هكذا؟ ألم تقل بأن هناك أرض تفيض لبنًا وعسلًا وزيتون ؟" سأل يوآف بنفاد صبر.
- القول ليس بلا ثمن يا بني.. الأرض التي نحلم بها ليست فارغة.. هناك من يعيش عليها، و سنحتاج إلى الشجاعة لنأخذ مكاننا بين سكانها.

كان يعقوب يحاول أن يخفف عن عائلته، لكنه كان يعلم أن الرحلة ليست فقط بحثًا عن أرض، بل صراعًا بين الماضي والمستقبل.

في إحدى الأيام، بينما كان يعقوب وأسرته يعملون في بناء خيامهم خلال عيد المظال، بدأت الأنباء تتسرب حول وصول قافلة تجارية قادمة من الساحل الفينيقي.. وقد حملت القافلة ثروات من السلع الغريبة التي لم يراها أهل البرية من قبل.. كان يوآف، الذي بدأ يشارك في السوق بشكل متزايد، يراقب القافلة عن كثب.

همس يوآف في نفسه، وهو يتطلع إلى البضائع الفاخرة التي حملها التجار:

- أنهم يملكون ما لا نملكه.. وما من شيء يمنعني من الحصول عليه

كانت هذه بداية لخطته الخفية، وفي الأيام التالية، بدأ يوآف في الاقتراب أكثر من التجار الكنعانيين، يتبادل معهم الأسرار ويسعى للتعرف على طرق التجارة الفاسدة.. بدأ يستغل الفراغات في النظام الكنعاني، ويشجع بعض التجار على رفع الأسعار في السوق وفرض أعباء ثقيلة على الفلاحين الذين يعتمدون على البيع في السوق.

قال يوآف لأحد التجار:

- أعلم أنكم تريدون كسب المزيد من المال.. لماذا لا ترفعون الأسعار؟ لن يكون هناك منافس لكم إذا قمتم بذلك..

وأكمل كلماته هامسا في السر:

- من يجرؤ على تحديكم؟

أصبح يوآف الشخص الذي يزود التجار الصغار بالمعلومات المضللة، مما ساعدهم على استغلال السوق لصالحهم.. كان يضع العراقيل أمام الفلاحين، ويجعلهم في حاجة إلى القروض الثقيلة، ليصبح هو الوسيط الذي يتلاعب بهم.

بينما كان يعقوب يحاول الحفاظ على تقاليد الحياة البسيطة في البرية، كان يوآف يتسلل في الظل، ينفذ خططه بحذر.. في أحد الأيام، بينما كان يعقوب يجلس مع بعض من رجال العشيرة حول النار، سمعوا ضجة في السوق.. كان الفلاحون غاضبين لأن أسعار الحبوب قد ارتفعت بشكل غير مسبوق، وكان البعض منهم يشتكي من عدم قدرتهم على تسديد الديون.

فقال أحد رجال العشيرة كبير فى العمر"هذه كلها لعبة القمار التي بدأها يوآف.. هو من كان وراء رفع الأسعار، ليجعل الجميع في حاجة إليه" همس أحد رجال يوآف وقال:

- لكن يعقوب لم يكن يعلم بعد من وراء تلك المكائد

بدأ يوآف يتسلل إلى قلب النظام الكنعاني، كان يتحالف مع رجال الدين في المعابد، ويغريهم بعروض مغرية.. وقد أثبت له تجارته الماكرة أن الأرض يمكن أن تباع بالمال، وأنهم يمكن أن يستغلوا الاحتياجات الطبيعية للناس من أجل الحصول على المزيد من السلطة.

قال يوآف لأحد رجال الملتزمين الذي كان يزداد اقتناعًا بكلامه :

- لكي تكون كبيرًا في هذا العالم، عليك أن تعرف كيف تبيع حتى الإيمان

وفي إحدى الليالي، بينما كان يعقوب يستريح في خيمته، دخل يوآف ليجده غارقًا في تفكير عميق.. قال يوآف بابتسامة باردة

- أبي،، لماذا كل هذا التمسك بالماضي؟ لماذا لا نعيش في الحاضر؟ هذه المدينة تزدهر أمام أعيننا، ونحن لا نستفيد منها

رد يعقوب بنبرة حازمة، وهو يشعر في قلبه أن ابنه بدأ يبتعد عن المبادئ التي تربى عليها وقال:

- أنت تظن أن المال هو الحل، يا بني، لكن في النهاية، سيأتي وقت تدفع فيه الثمن.

لكن يوآف، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، قال:

- المال هو القوة، يا أبي.. القوة تعني الأمان، والقوة تعني البقاء.. إن لم تواكب العصر، ستظل مجرد راعٍ في صحراء بلا نهاية.

بدأت الحيل التي نفذها يوآف تؤتي ثمارها، فقد أصبح يسيطر على السوق بشكل غير مباشر.. كان يزرع الشكوك بين أهل يبوس، ويعمل على إحداث تفرقة بينهم.. لم يعد يهتم بتقاليد البرية أو بالحياة البسيطة التي عاشها مع والده.. أصبح هدفه الأكبر هو أن يرى نفسه في أعلى مراتب السلطة.

في أحد الأيام، بينما كان يوآف يسير في السوق، التقى بإيليزار وقال:

- أنت ذكي، يا فتى، ولكن هل تعتقد أنك تملك كل مفاتيح اللعبة؟ هناك دائمًا من هو أقوى منك.

رد يوآف بنبرة واثقة:

- الذكاء هو القوة الحقيقية ولا أحد أقوى من الذكاء.

ومع مرور الوقت، أصبحت مدينة يبوس تتغير ببطء، فقد انتشرت الفوضى الاقتصادية التي خلقها يوآف، وتحولت المدينة إلى ساحة من التلاعب والاستغلال.. في حين استمر يعقوب في تمسكه بتقاليد البادية، بدأ أهل يبوس يشعرون بأنهم وقعوا ضحايا لمكائد يوآف.

في أحد الأيام، وأثناء الاحتفال بأحد الأعياد الكنعانية، تم كشف مخطط يوآف الحقيقي، لكن كان قد فات الأوان.. كان قد ربط مصيره بمصير المدينة، وأصبح لا يمكن استبعاده من المشهد.

- أين يبوس؟" همس يوآف في نفسه هو يضحك بسخرية، بينما كان يشاهد المدينة تتغير.. ولكن من سيحاكمه الآن؟

2- رحلة هرمينا إلى " إيليا كابيتولينا"

بينما كانت الشمس تلقي خيوطها الذهبية على شواطئ الإسكندرية، قرر هرمينا، الكاتب الذي يبحث عن ذاته، أن يبدأ رحلة جديدة.. ترك مدينته الغارقة في العلم والجمال متجهًا نحو مدينة غامضة تشهد تقاطع الحضارات—إيليا كابيتولينا.

كانت المدينة التي شهدت ولادته وشبابه مليئة بالذكريات العميقة، معابد آمون القديمة، التي كانت تحكي قصصًا عن آلهة مصرية عظيمة، كانت تبرز من بين الأبنية، وكأنها تذكره بحضارة عريقة لم تنته بعد.

لقد مرّ الزمن، وكان هرمينا قد بدأ يشعر بثقل الأيام على قلبه.
مكتبة الإسكندرية، التي كانت مركزًا علميًا بارزًا، كانت لا تزال تحتفظ بآثار آلاف الكتب المخطوطة التي سعى العلماء والحكماء من مختلف أنحاء العالم القديم إلى دراستها.
في هذا العالم الذي يجمع بين المعرفة القديمة والجمال الطبيعي، بدأ هرمينا يشعر أن الوقت قد حان للبحث عن مكان جديد يلهمه ويمنحه رؤية مختلفة لكتاباته.

وفي لحظة هدوء على ضفاف البحر، نظر هرمينا إلى الأفق البعيد وقال لنفسه:

- قد أكون في حاجة إلى البحث عن جديد... عن مدينة تجمع بين الماضي والحاضر، بين الثقافات المختلفة.

وصل هرمينا إلى إيليا في وقت كانت فيه المدينة تجذب المسافرين من مختلف أنحاء العالم القديم.
كانت إيليا تحتفظ بموقعها الاستراتيجي كمدينة شاهدة على تقاطع الطرق الثقافية والدينية.
كانت أسوارها الحجرية العتيقة تحيط بتاريخ طويل، بينما كانت الأحياء المختلفة للمدينة تمتلئ بالحياة اليومية.

كل زاوية في إيليا كانت تحمل بصمات حضارات متعددة.. من الشوارع التي تبطنها الأبنية البيزنطية، إلى الأسواق المزدحمة التي تنبع منها رائحة التوابل والفواكه، وكان كل حجر في الطريق يروي قصة عن الزمن الذي مضى.
كان هرمينا يستمتع بجولة في المدينة القديمة، مستشعرًا كيف أن المعمار البيزنطي قد امتزج في كثير من الأماكن مع آثار فترات سابقة، ليشكل مزيجًا فريدًا من الحضارات.

في أحد أسواق المدينة، حيث التقت رائحة الخبز الطازج برائحة الأعشاب الشرقية، قابل "رحيل"، فتاة من القدس، تتمتع بجمال هادئ وذكاء لامع.

كانت رحيل تمثل الجيل الذي نشأ في وسط هذا التنوع الثقافي، وكأنها جزء من النسيج المعقد الذي تتشكل منه المدينة.
ذهب هرمينا إلى السوق ينتظر رحيل، أتت رحيل.. وعباءتها المزخرفة تتمايل كأشعة الشمس، فتنهد هرمينا مبتسمًا وقال:

- هذه المدينة، مليئة بالحكايات والأسرار، كل زاوية فيها تخفي شيئًا مختلفًا عن الأخرى،هل شعرتِ يومًا بأنكِ جزء من هذا التاريخ؟
- إيليا ليست مجرد مدينة، بل هي نقطة التقاء لحضارات عديدة.. قد يشعر البعض بالتيه هنا، لكنني أرى في كل حجر من هذه الأسوار تاريخًا طويلًا ينطق بأحداث كثيرة.
- أشعر أنني في رحلة لا أبحث فيها فقط عن مكان، بل عن نفسي.. كان لدي دائمًا شعور بأنني ضائع، ولكن هنا، بين هذه الأسوار، أعتقد أنني قد أبدأ في فهم العالم.

تركت رحيل هرمينا بين إيليا ومعشوقته الإسكندرية، حتى قام من جلسته يسير بلا وجهة.

وبينما كان هرمينا يتنقل بين الأزقة الضيقة في إيليا، كان يجد نفسه في لحظات تأملية صامتة.. فقد كان يعجبه كيف أن المدينة، رغم صغرها، تحمل في طياتها تاريخًا عميقًا يربط بين الماضي والحاضر.. كانت المحلات الصغيرة التي تبيع الأقمشة والمجوهرات تعكس إبداع سكان المدينة، و الطرقات المبلطة بالحجارة القديمة كانت تأخذ هرمينا إلى أماكن تشعره وكأنه يسير في متاهة الزمن.

في تلك اللحظات، بدأ هرمينا يفكر في رحلته الداخلية، وكيف أن الحياة في القدس، بكل ما فيها من جمال وروحانية، قد بدأت تكشف له أبعادًا جديدة، كان يرى في رحيل مثالًا للشجاعة الداخلية؛ كيف استطاعت أن تكون جزءًا من هذا التوازن المدهش بين الفترات المختلفة التي مرت بها المدينة.

في أحد المساءات الهادئة، حيث كانت السماء تتزين بالنجوم وتنبعث نسائم البحر الأحمر من بعيد، تجول هرمينا ورحيل في الحديقة المحيطة بالمدينة.. كانت الأضواء الخافتة تعكس الظلال على الجدران الحجرية، فبدت المدينة كأنها لوحة فنية حية، قابل رحيل وقال:

- عندما كنت في الإسكندرية، كنت أعتقد أنني أعرف كل شيء عن الحضارات وتاريخ العالم، وكنت أكتب بلا توقف... لكن هنا، في القدس، يبدو كل شيء مختلفًا.. أعتقد أنني بدأت أفهم أن التاريخ ليس مجرد ما نقرأه في الكتب، بل هو ما نعيشه في هذه اللحظات."
- هذه المدينة، في جوهرها، هي قصة أجيال.. فكل واحد منا يحمل جزءًا من هذا التاريخ، سواء كان يتذكره أم لا.. ربما أنت هنا لاكتشاف ذلك الجزء الذي يخصك.

رحيل تذهب بلا وداع، كعادتها.. وبعد فترة من التأمل في أزقة القدس، بدأ هرمينا يشعر بحاجة عميقة إلى العودة إلى الإسكندرية.. لكن العودة لم تكن كما تخيلها؛ فقد أدرك أن ما كان يبحث عنه في رحلته لم يكن في الأماكن، بل في أعماق نفسه، شعر أن كل لحظة عاشها في القدس أضافت إليه شيئًا جديدًا، وكأن المدينة قد أهدته جزءًا من روحها.
قبل أن يغادر الأزقة حتى يرتاح قليلاً، كان يجلس في أحد المقاهي الصغيرة في المدينة القديمة، يتأمل في الماضي وفي القرارات التي اتخذها.. كانت المدينة أمامه، لكن قلبه كان مليئًا بأفكار جديدة.
وجد هرمينا رحيل تنظر أمام الجميع وكأنها تعلن أن هرمينا الغريب هو حبيبها.
قال هرمينا:

- رحيل، لا أعتقد أنني سأجد الإجابة في مكان واحد.. ربما لا تكون الإجابة في المدينة أو في التاريخ، بل في ما تعلمته في هذه الرحلة.

- كل رحلة تبدأ بنية معينة، لكن أحيانًا تكون الإجابات غير ما توقعنا.. قد تكون الإجابة هي الاستمرار في البحث.

رحيل، جميلة كأنها إحدى شخصيات قصصه، وذكية تُشعل في قلبه لهيب الشغف والدهشة.

مرَّت الأيام في إيليا كأنها قصيدة لا تنتهي.. كان يلتقي بها بين أزقة المدينة القديمة، قرب بائع الأقمشة أو في أروقة الأسواق، حيث امتلأت الأجواء بأصوات الباعة وأريج التوابل.. تأثّر هرمينا بتاريخ القدس العريق، وتعرف من خلال رحيل على صراعاتها المستمرة، من ثورات أهل المدينة ضد الحكم الروماني وصولًا إلى المعابد القديمة التي دمّرها الرومان.. تحدثت رحيل عن الثورة الكبرى عام 66 م ضد الإمبراطورية الرومانية، حين قرر أهلها التمرد على الحاكم الروماني بسبب الضرائب الباهظة ومحاولة فرض العادات الرومانية على المدينة.. لكن هذا التمرد لم يدم طويلًا؛ إذ أرسل الإمبراطور نيرون القائد فيسباسيان وابنه تيتوس لإخماد الثورة.. وبعد سنوات قليلة، عام 70 م، دمر تيتوس ما استطاع وأحرق أجزاءً واسعة من المدينة، في محاولة لمحو أي رموز للمقاومة.

كان هرمينا يشعر أن حبه لرحيل ليس مجرد علاقة عابرة، بل جزء من قصة أزلية تمتد عبر الزمن، كأنهما عاشا معًا وسط تلك الأحداث قبل مئات السنين.

لكن ذات مساء، وبينما كان هرمينا ينتظر رحيل عند باب دمشق، جاءه خبرٌ كالصاعقة، رحيل اختفت للأبد.. فقدت كما يفقد حلم من ذاكرة، دون أثر أو وداع.. لم يستطع تقبل هذه الفكرة؛ كيف لرجلٍ أن يعيش بعد أن تفقده الحياة تلك الروح التي جعلته يشعر كأنه جزء من أسطورة أبدية؟

بدأت تتآكل روحه شيئًا فشيئًا؛ لم يعد يجد في الكتابة ملاذًا ولا في الأزقة عزاءً.. كان كل حجر، كل زاوية، يذكره بابتسامتها وبصوتها الذي كان يملأ الفراغ من حوله.. حتى بات يرى طيفها في كل مكان، كأنها تراقبه بصمت، تهمس له في أوقات العزلة:

- هرمينا، أنا هنا، لكنك لن تلمسني أبدًا.

في لحظات تيهه، بدأ هرمينا يزور الأماكن التي كانت قد حدثته عنها، مواقع المعابد القديمة وآثار الجدران التي هدمها الرومان.. كان يقف أمام بقايا الهياكل الحجرية التي شهدت على معارك وانتصارات وخيبات، ويرى فيها رموزاً لفقدانه.. وفي خياله المضطرب، رأى الجنود الرومان يقتحمون المدينة، مشهدًا كأنه عودة للألم، يعكس جرحه الشخصي بفقدان رحيل، فكأنما الرومان لم يغادروا قط، وكأن فقدانه لها كان تكرارًا للدمار الذي ألحقه الرومان بقلوب القدس وسكانها.

مرّ عليه الوقت، وقد بدأ يفقد نفسه مع كل يوم يمر.. أصبح الناس يرونه هائمًا بلا وعي، يتحدث إلى أطياف رحيل وكأنها لم تغادر قط.. كان هرمينا يتنقل بين أزقة القدس كأنه في عالم بين الواقع والوهم، يبحث عن رحيل بين الأحياء، وكأنه يأمل أن تكون مجرد غائبة، وأنه سيجدها في إحدى زوايا المدينة.

تحوّل إلى رجلٍ غريبِ الأطوار، يتكلم مع طيفها، ويستعيد في ذهنه كل لحظة عاشها معها.. وبدأ يشعر بأن تدمير روحه على يد فقدان رحيل ليس إلا جزءًا من الصراع الأكبر الذي عاشتْه المدينة عبر تاريخها الطويل.

3-غصن الزيتون

في أسواق القدس الضيقة، حيث تمتزج الروائح بين البهارات والزيتون والخبز الطازج، وحيث تعلو أصوات التجار على بعضها البعض، كان سامي يجلس أمام عربته الصغيرة التي تكدست بالخضروات الطازجة.. تجاعيد وجهه المبكرة تحمل حكايات طويلة، لكنها تخفي أيضًا أفكارًا أثقل من أن يُقال عنها.. كان السوق يعج بالحياة، من جنود الرومان الذين يعبرون بنظرات استعلاء، إلى التجار الذين يبيعون بضاعتهم بإلحاح.. سامر، وسط هذا الصخب، بدا كأنه ينتمي إلى مكان آخر، أو ربما يبحث عن مكان جديد ينتمي إليه.

بينما كان يعيد ترتيب الخضروات، سمع صوتًا مألوفًا يقول:

- ما زلت هنا، سامر،؟

رفع رأسه ليجد ليلى، ابنة التاجر الكبير، تقف أمامه.. كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا لكنه يحمل لمسة من الأناقة، وشعرها الأسود ينسدل كأنه يتحدى كل ما هو عادي.

قال سامر، بصوت خافت، لا يخلو من مرارة:

- نعم، ليلى، هنا بين الجدران التي لا نتركها، ولا تتركنا.

ابتسمت ليلى، لكنها لم تستطع إخفاء الحزن في عينيها وقالت:

- أتعلم يا سامر، أحيانًا أشعر أن هذه الجدران ليست سوى سجن كبير، لكنها مغطاة بحكايات قديمة تجعلنا نظن أننا أحرار.

سكت سامر، للحظة، ثم قال:

- ربما نحن من نصنع هذا السجن.. نحب البقاء بين الجدران لأننا نخشى المجهول خارجها.

اقتربت ليلى بخطوة، ثم نظرت إليه بعينين تحملان عبئًا لا يمكن وصفه..

- أنت تعرفني، سامر،.. لا أستطيع البقاء هنا.. أريد الذهاب إلى روما، أريد أن أعيش حيث لا أحد يعرفني، حيث لا جدران.

كانت كلماتها كالصاعقة بالنسبة له..فقال:

- روما؟ كيف يمكنها أن تفكر في ترك المدينة؟ "روما؟ هل ستتركين كل شيء؟ أم أنكِ تهربين؟

ابتسمت ليلى بسخرية.. وقالت:

- أليس الهروب نوعًا من النجاة؟ سامر، نحن نعيش هنا وكأننا ننتظر شيئًا لن يأتي أبدًا.. أنا لست مثلهم، ولن أكون مثلهم.

سامي نظر إليها بحزن، وكأنه يرى وجهه في مرآة وقال :

- ولكن، من نحن بدون هذه الجدران؟ ماذا سنكون خارجها؟
- ربما نصبح أحرارًا

أيام مرت بعد مغادرة ليلى السوق لم يعد كما كان، أو ربما سامي هو الذي تغير.. كانت الأخبار تنتشر عن حركات مقاومة جديدة ضد الرومان.. كان الجنود يزدادون قسوة، وكأنهم يحاولون سحق أي أمل في التغيير.

ذات يوم، وقف سامر، أمام عربته يراقب الجنود، وشعر بشيء غريب في داخله.. لم تعد الجدران تحميه، بل أصبحت تخنقه.. تذكر كلمات ليلى عن الحرية، لكنه لم يرد الرحيل.

في المساء، جلس سامر، أمام منزله البسيط، ينظر إلى السماء التي لم تكن تعرف الجدران.. في داخله، كان هناك صراع لم يُحسم.. هل ينضم إلى المقاومة، أم يظل صامتًا؟ لكنه أدرك أخيرًا أن الصمت نفسه كان سجنًا آخر.
مرت الأيام، وسامر، لا يزال في ذات المكان، بين الجدران الضيقة للسوق، محاطًا بأصوات الباعة والمشترين، لكنه كان يتغير في صمت.. كانت خضرواته قد تحولت إلى جزء من المكان، وكان هو نفسه قد أصبح جزءًا من هذه المدينة التي يراها متعبة، لكنها في ذات الوقت جزء منه.

في ذلك اليوم، بينما كان يتأمل في مكانه المعتاد، شعر بشيء غريب يعبر في الأجواء.. كانت السماء قد بدأت تغيم، ولكن هناك شيئًا جديدًا في الهواء، شيء لا يستطيع تفسيره.

ثم، في وسط الزحام، ظهرت ليلى.. كانت قد عادت إلى المدينة، لكن هذه المرة، لم تكن كما كانت في السابق.. كانت عيونها تحمل شيئًا مختلفًا، لا يبدو أنه ندم، بل ربما إدراك لشيء كان غائبًا عنها.

اقتربت منه ببطء، وكل خطوة كانت كأنها تهمس له:

- أنت هنا، رغم كل شيء.

نظر إليها سامر، في البداية بنظرة مشوشة، ثم بدأ قلبه ينبض بقوة أكبر.. كانت تلك اللحظات كما لو أن الزمن قد توقف بينهما.

قالت ليلى بلطف، وهي تمسك يده:

- أنت غصن من أغصان الزيتون، سامي.. لم تفقد جذرك، ولم تنكسر.. كنت هنا دائمًا، وقفت بجانب الجميع ..حتى عندما اخترت الصمت.

سامر، الذي كان قد اعتقد أنه ضاع في صمت المدينة، شعر فجأة أن هناك معنى جديدًا لكل لحظة عاشها هنا.. لم يكن بحاجة للهروب، لأنه كان يملك شيئًا أعمق: الثبات في وجه التحديات..فقالت:

- انا هنا، ليلى. لن أذهب."

ابتسمت ليلى، وأخيرًا، فهمت ما كان يعلمه سامر دون أن يتكلم: الصمود لا يعني الهروب، بل أن تكون جزءًا من المكان، مهما كانت الظروف.. كان سامي، البائع البسيط، هو البطل الذي لم يحتاج إلى مغادرة ليشعر بالحرية.. هو حر في صموده، في البقاء.

بينما كانت يداهما متشابكتين، أحاطهما السوق بأصواته المعتادة، ولكن في تلك اللحظة، شعر سامي أنه على الرغم من كل شيء، فإن قلبه كان ينبض بحرية، في هذا المكان الذي اختار البقاء فيه.

وهكذا، بقي سامر هناك، غصن الزيتون الذي لا ينكسر، وحتّى لو كانت الطرق أمامه ضبابية، كان يملك ما يكفي من القوة ليظل واقفًا، لا يهاب الزمن أو التحديات، لأنه يعرف أن الحرية الحقيقية تكمن في القدرة على العيش في مكانك، رغم كل شيء.

4-أمواج القدس

في أزقة القدس القديمة، حيث الأزقة المتعرجة والحجارة الملطخة بدماء الحروب، كانت ريم تسير وحدها، بينما قلوب الناس مثقلة بالخوف والأمل المتناقض.
فقد مات والداها في قصف بيزنطي مدمر، تاركين وراءهما ابنة وحيدة تواجه عالمًا متصدعًا.

في ذلك المساء، بينما كانت ريم تجلس على عتبة منزلها المهدم، سمعت صوت خطوات غير مألوفة.
تقدمت مجموعة من الجنود البيزنطيين، عيونهم تبحث عن شيء أو أحد.
اختبأت ريم خلف الحائط، وهي تصغي إلى حديثهم المشحون بالغضب:

- لقد أُبلغنا أن جيش عمر قادمون.. إذا لم نحكم قبضتنا على القدس، سنفقد كل شيء!

كان واضحًا أن المدينة على أعتاب تغيير عظيم، لكن هذا لم يكن بالضرورة خبرًا سارًا لريم.. فقد اعتادت العيش تحت قبضة الخوف.. لكنها كانت تخشى الفوضى التي تأتي مع أي تحول.

في اليوم التالي، وبينما كانت تتسلل عبر السوق للحصول على بعض الخبز، رأت مجموعة من جنود عمر بن الخطاب متنكرين علي أطراف المدينة.. كان قائدهم شابًا في منتصف الثلاثينيات، وجهه يحمل آثار قوة وطيبة ، لكنه بدا مفعمًا بالثقة والهدوء.

تقدمت ريم بخطوات مترددة نحو أحد الجنود، وسألته:

- من أنتم؟ لماذا أنتم هنا؟

نظر إليها الجندي بعينيه الداكنتين وقال:

- نحن هنا مع.. قائدنا، عمر بن الخطاب، ويضمن أن تحترم حقوق الجميع.

و مع اقتراب الليل، ازدادت حدة التوتر في المدينة.. الجنود البيزنطيون بدأوا في تجميع السكان كرهائن، وكانوا يهددون بإحراق الأحياء إن لم يغادر جيش عمر المدينة.. كان الخوف يسيطر على كل شيء، لكن في قلب كل هذا الفوضى، بدأ أهل القدس يتحدثون عن معجزة محتملة: العهدة العمرية، اتفاقية تُكتب بحبر العدالة.

الصراع يتصاعد

أصبحت ريم شاهدة على الأحداث تتصاعد من حولها.. في إحدى الليالي، اقتحم الجنود البيزنطيون منزل أحد جيرانها، ظناً منهم أنه يخفي أسلحة لجيش عمر.. صرخ الجار، محاولًا حماية أسرته، لكن الجنود لم يترددوا في ضربه واعتقاله وقتل كل أفراد عائلته.

ريم، التي كانت تراقب كل شيء من النافذة، شعرت بالذنب لعدم قدرتها على التدخل.. لكنها لم تكن وحدها التي تشعر بهذا.. كان هناك شاب آخر، يعمل سرًا على نقل المعلومات بين جيش عمر وبعض السكان المحليين.. اسمه عيسى، وكان يمتلك شجاعة نادرة، لكنه كان يخاطر بكل شيء من أجل العدالة.

ذات ليلة، طرق عيسى باب منزل ريم .. قال لها بهدوء:

- أعرف أنك خائفة، لكن القدس تحتاج إلى كل شخص لديه قلب ينبض.. الجنود البيزنطيون يحتجزون الناس كرهائن، ونحن بحاجة إلى مساعدتك لإنقاذهم.

ترددت ريم.. كيف يمكن لفتاة وحيدة لم تتجاوز الخامسة عشر أن تكون جزءًا من هذا؟ لكنها كانت تعرف أن عيسى على حق.

مع بزوغ الفجر، خرجت ريم مع عيسى إلى أحد الأزقة الخلفية حيث كان الجنود البيزنطيون يحتجزون الرهائن.. كان لديهم خطة محفوفة بالمخاطر: التسلل إلى المكان تحت غطاء الظلام، وفتح البوابات من الداخل للسماح للمسلمين بالدخول وإنقاذ الرهائن.

لكن الأمور لم تسر كما هو متوقع.. اكتشف أحد الجنود وجودهم، وبدأت معركة قصيرة ولكن عنيفة.. تمكنت ريم من التسلل إلى الداخل، بينما كان عيسى يواجه الجنود.. أصوات السيوف تصطدم، والصرخات تملأ الهواء، لكنها ظلت متمسكة بمهمتها.

في النهاية، استطاعت فتح البوابة، ودخل الجيش الحر بقيادة عمر بن الخطاب.. نجحوا في تحرير الرهائن، لكن عيسى كان قد أصيب بجروح خطيرة.

بعد انتهاء المعركة، جاء أحد رجال عمر بن الخطاب إلى المكان، وتحدث إلى سكان القدس.. كانت كلماته بسيطة لكنها عميقة:

- العدالة لا تُفرض إلا بالقلب الذي يرحم.. هذه المدينة لن تعرف الظلم بعد اليوم ما دامت القلوب على ترابها

ريم، التي شاهدت كل شيء، شعرت بأنها جزء من التغيير.. على الرغم من خسارة الكثير، أدركت أن الأمل يمكن أن ينبثق حتى من أحلك اللحظات.

جلست بجانب عيسى، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقالت له بصوت متحشرج:

- لقد فعلناها. لقد أصبحنا جزءًا من شيء أكبر.

ابتسم عيسى بصعوبة وقال:

- إيليا كانت تستحق كل هذا.

في النهاية، وقفت ريم على أسوار المدينة، تنظر إلى الأفق الجديد، مدركة أن التغيير قد بدأ، وأن دورها في هذا العالم لم ينتهِ بعد.

5- في ظل صلاح الدين

في ذلك اليوم المشؤوم، حين اجتاحت جيوش الصليبيين القدس في عام 1099م، كان ميخائيل، الذي لم يكن في منزله بل في السوق مع أحمد، قد سمع عن المذبحة التي حلّت بأهل المدينة، لكن قلبه كان لا يزال لا يصدق ما جرى.
كان قد غاب عن المنزل أثناء تلك اللحظات الرهيبة، وعندما عاد إلى الحي في المساء، لم يجد سوى الأطلال والجثث، وأجساد الأحبة التي لم تنجُ من المجزرة المروعة.

بينما كان يسير في شوارع المدينة المدمرة، تعثّر بعينيه في وجه أحمد، جاره وصديقه، الذي كان يمر إلى جانبه وهو يحمل في يده قطعة من الثياب الملطخة بالدماء..لم يقل أحمد شيئًا، لكنه كانت كلماته واضحة في عينيه الحزينة التي لم تكد ترى النور بعد تلك الأحداث.

قال أحمد بصوت متقطع:
- لقد رأيتُهم جميعًا.. عائلتي.. لم يتمكنوا من النجاة، يا ميخائيل.

هزّ ميخائيل رأسه، وكان الصوت الذي يخرج منه أشبه بالهمسات:
- لم أكن هنا، كنت بعيدًا... لكنني شعرت بموتهم في قلبي.

بينما كان ميخائيل يتجول في شوارع القدس، بدأ يرى كيف اختلطت ملامح الخوف والدمار في المكان.
كان أبناء المدينة يعانون، وكان صراخ الآلام يتردد بين الأزقة.. كان الهجوم على القدس قد أودى بحياة العديد من الأبرياء، وراح الضحايا يشهدون على تعسف جيوش الصليبيين.. تذكر ميخائيل تلك اللحظات التي احتضن فيها بعض الصغار وهم يبكون، بينما كانوا يقفون في الحي ينتظرون عودة الأب، ولكن القدر لم يكن ليمنحهم هذه الفرصة.

في تلك اللحظات المأساوية، قرر ميخائيل أن يتخذ مسارًا جديدًا في حياته.. لم يعد يهتم بالأحداث العادية، بل أصبح يركز على البقاء على قيد الحياة في وسط هذا الدمار.

وفي غضون ذلك، كان أحمد، الذي خسر هو الآخر عائلته، قد قرر أن يتجه مع ميخائيل إلى خارج المدينة للبحث عن مأوى، لكن الدموع التي في عيونهم كانت أعمق من الكلمات.. بينما كانوا يسيرون في الطرق المهجورة، شهدوا على المذبحة التي تسببت في تدمير تلك الأرض الطاهرة.

قضى ميخائيل وأحمد أيامًا طويلة في الصمت، يفكران في عائلاتهم التي ذهبت ضحية لهذه الفظائع، و يسترجعون الذكريات القديمة.
بعد مرور سنوات على المذبحة التي شهدتها القدس، قرر أحمد العودة إلى المدينة، بعدما كان قد قرر في وقت سابق تركها.. لكن شيئًا ما كان يمنعه من الرحيل، حيث شعر أنه لا يستطيع ترك هذه الأرض التي شهدت مآسيه وآلامه.. ميخائيل، الذي أصبح أحد أصدقائه المقربين، قرر البقاء أيضًا بعد تراجع أحمد عن مغادرة القدس.. مع مرور الوقت، كبر الشابان وتوالت الأيام حتى أصبح لديهما أسرة.

أنجبت زوجة أحمد ابنًا، أسمياه آدم، بينما أنجبت زوجة ميخائيل ابنة، اسميتها رحيل.. رغم اختلاف حياتهم، كانت روحهم واحدة، وكأن الزمن لم يستطع التفريق بينهما.. أصبح آدم صديقًا لزوج رحيل، جورج، وكان بمثابة الأخ له.. كانت حياتهم مليئة بالمشاعر المتبادلة من الحب والدعم مات الآباء والأمهات وتبقى رحيل وادم، لكن مع دخول أحداث جديدة في القدس، بدأت الأمور تتغير.

في تلك الأثناء، كان أخبار صلاح الدين وظهوره في المنطقة قد بدأت تنتشر.. كان دخول جيشه للقدس مفعمًا بالأمل، ولكن أيضًا بالحذر والقلق.. كان أحمد وميخائيل، وكلاهما كانا في وضع حساس، يتساءلان عن مستقبل المدينة وما ستؤول إليه الأمور.

قرر آدم، الذي شعر بضرورة حماية مدينته، الالتحاق بجيش صلاح الدين.. رغم خوفه من الموت وقلقه على مستقبله خصوصاً أنه مقبل على الزواج ، إلا أنه كان يؤمن أن هذا هو الوقت المناسب للمشاركة في تغيير مصير القدس.

وفي لحظة حاسمة، أثناء تجهيزه للمغادرة، نظر إلى جورج، صديقه وحليفه الذي كان دائمًا إلى جانبه في أصعب الأوقات، وقال له:

- لقد حان الوقت، جورج.. لا أستطيع أن أظل في هذا المكان بينما يقاتل غيرنا من أجل حرية الأرض.

ابتسم جورج، ومسح دمعة ظهرت في عينه وقال:

- لقد فعلتها، يا رجل.. وأنا معك في كل خطوة."

كانت لحظة وداع مؤلمة لرحيل، عندما قرر آدم الالتحاق بجيش صلاح الدين، لم يكن وحيدًا.. كان جورج، صديقه الذي كان يقف إلى جانبه في كل الأوقات الصعبة، قد اتخذ نفس القرار.. رغم التوتر الذي كان يسكن قلب كل منهما، كان هناك شعور غامر بالوحدة والأمل معًا، أمل بأن الحرية باتت على الأبواب، ولكن الخوف أيضًا من الغموض الذي ينتظرهم في ساحة المعركة.

في تلك اللحظات الحاسمة من الوداع، وقف آدم أمام جورج، وكان كل منهما يدرك تمامًا أن الرحلة المقبلة قد تكون الأخيرة.. سأل آدم بصوت متحشرج:

- هل ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها، يا جورج؟

أجاب جورج، وهو يمسح العرق عن جبينه:

- لا أريد أن أفكر بذلك، لكن إن كانت هذه هي النهاية، فأنا فخور بما نحن بصدد فعله.. سنقاتل من أجل القدس، ومن أجل كل ما نؤمن به.

وفي مشهد مليء بالدموع والابتسامات الحزينة، ودع كل منهما الآخر، وتأكدوا من أنهما في نفس الصف، يسيران معًا في نفس الطريق، مهما كانت التضحيات التي يقدمونها.

عندما وصلوا إلى ساحة المعركة، كان المشهد مأساويًا وعظيمًا في نفس الوقت.. لم يكن الأمر مجرد معركة، بل كان معركة لإستعادة القدس من أيدي المعتدين.. وكان آدم يقاتل بكل ما أوتي من قوة، لكنه سقط أخيرًا، جرحًا غائرًا في قلبه، أمام أعين صديقه جورج.. كانت تلك اللحظة مليئة بالحزن والألم.

رغم دموعه، رفع جورج رأسه في السماء وقال:

- لقد فعلتها، يا آدم.. لقد أشرقت الشمس..قد تكون قد رحلت، ولكنك خلّدت ذكراك في هذه الأرض، وأنت من جعل الشمس تشرق في قلب القدس.

ثم ترجل من على حصانه، وركع بجانب جثة صديقه، يبكي بحرقة.. ولكن في قلبه، كان يعلم أن القدس قد بدأت تشرق من جديد، لأن تضحياتهم كانت هي البداية.

بعد أن دخل صلاح الدين الأيوبي إلى القدس في عام 1187، كانت المدينة تعيش مرحلة جديدة تمامًا.. وكان الانتصار الكبير لا يعني فقط تحرير القدس، بل أيضًا بداية فترة إصلاحات جذرية على كل الأصعدة، من أجل ضمان حياة عادلة وآمنة لسكانها، بغض النظر عن خلفياتهم أو انتماءاتهم.

أولى خطوات صلاح الدين كانت معالجة الجرح الذي خلفته سنوات من الاحتلال، فبدأ بتوحيد المدينة تحت راية السلام والمساواة، وفتح أبوابها لكل الذين فقدوا الأمل في العودة إلى حياتهم الطبيعية.. اتخذ العديد من القرارات التي ضمنت حقوق الجميع، وأعاد الأمن والطمأنينة إلى شوارع المدينة القديمة.. أصبح المسجد الأقصى مكانًا للعبادة بسلام، بينما تم فتح الكنائس التي كانت قد أغلقت منذ فترة طويلة بسبب الحروب.

صلاح الدين أيضًا أعاد إعمار الأماكن التي دُمرت، وأمر بترميم الجدران التاريخية والمباني المقدسة، بما في ذلك الكنائس والمساجد.. كما قرر أن تُعطى الجاليات المختلفة في القدس حرية العبادة والعمل دون تدخل، في خطوة كانت بمثابة رسالة من القائد بأن العدالة لا تميز بين أحد.

في هذا السياق الجديد من الحرية، كانت رحيل قد بدأت تشعر أن المدينة بدأت تستعيد بريقها، لكن داخلها كان هناك دائمًا ألم من الماضي. وفي يوم من الأيام، وقف جورج إلى جانبها في أحد الأزقة الضيقة، كان الهواء مليئًا بروائح التراب الجديد الذي كان يشير إلى أن الحياة بدأت تنمو من جديد.

جلس جورج أمام رحيل وقال:

- لقد رأيت المدينة تُبنى من جديد، رحيل.. لكننا بحاجة إلى أن نبني أنفسنا أيضًا.. أردت أن أخبرك بشيء مهم."

رحيل نظرت إليه بتمعن، ثم قالت بصوت مليء بالحيرة:

- ماذا بعد كل هذا، جورج؟ هل سنظل نعيش في ظلال الماضي؟ هل ستظل القدس هي ما فقدناه؟"

ابتسم لها وقال وهو يشير إلى المدينة:

- القدس الآن تختلف..انظري حولك.. صلاح الدين لم يحرر الأرض فقط، بل حررنا جميعًا.. نحن هنا لنعيش، لننعم بالسلام.. ولا مكان للسواد بعد الآن.

ثم أضاف وهو يرى في عينيها بريق الأمل الذي بدأ يتشكل:

- كفا سوادًا، رحيل.. دعينا نحتفل بالحرية التي حققناها.. دعيني أريك كيف تبدو الحياة الجديدة.

وقتها، كانت رحيل تعرف أن العودة إلى الحياة ليست مسألة ارتداء الملابس أو العباءات، بل هي القدرة على التخلص من الماضي، حتى وإن كان مؤلمًا.. وبتوجيه من جورج، قررت أن تترك العباءة السوداء، وتستبدلها بالزي الفلسطيني التقليدي، كما كان يحلم آدم دائمًا.. وكأنها كانت تحتفل بتحررها، وبالحرية التي أتى بها صلاح الدين.

6- تابوت العهد 1187م

في إحدى الليالي الباردة، وبينما كانت الأزقة الحجرية الضيقة تكتسي بهدوء المدينة القديمة، خرج أيمن متجهًا إلى قلب القدس، أضاءت فوانيس السوق المعلقة في زوايا الطرقات، وانعكست أنوارها على الجدران العتيقة التي شهدت حكايات مئات السنين.
كان الناس في تلك الأيام يرتدون الجلابيب الفضفاضة ذات الألوان الترابية التي تتماشى مع روح المدينة، وتحت الأحزمة العريضة يتدلى خنجر مزخرف، تذكيرًا بأهمية الحماية والحيطة.

الرجال في الأسواق يرتدون الحطّات البيضاء والعقالات السوداء، في حين أن النساء تظهر بينهن عباءات حريرية مطرزة بألوان نابضة، و رؤوسهن مغلفة بخمار رقيق ينسدل على أكتافهن برقة، كانت النسوة تحملن سلال القش، مملوءة بالتوابل والحبوب، وأصوات الباعة تتداخل مع رائحة الخبز الطازج والزيتون الذي يميز شوارع القدس في تلك الحقبة.
وقد بدأت أنباء استرداد القدس تتردد في أرجاء البلاد الإسلامية؛ إذ تمكّن صلاح الدين الأيوبي من استعادة المدينة بعد معركة حطين الحاسمة..كانت أصوات الاحتفالات في القدس تصدح بأمل جديد، لكن معاناتهم لم تنتهِ تمامًا، فقد ترك الاحتلال الصليبي آثارًا ثقيلة على حياتهم.
وفي أزقة المدينة المقدسة، ترعرع أيمن، شاب لم يعرف إلا عناد الفلسطينيين وإصرارهم على صمودهم.

لكن في أعماق قلب أيمن كان هناك شغف لمعرفة المزيد عن العالم، وسمع كثيرًا عن علوم الأندلس التي تنافس ضوء الشمس في روعتها، رغب في الخروج بعيدًا ليبحث عن المعرفة، ليصل إلى أرض الأندلس حيث العلماء والفلاسفة، وهناك كانت سمعته قد سبقت اسم ابن رشد، الفيلسوف الذي ارتبط اسمه بالتسامح والعقلانية.

وفي يوم غروب، مع دعاء والدته وتوديع أصدقائه، ودّع أيمن وطنه وهو يحمل حلم العودة ليصنع الفرق.
عبر البحر الأبيض المتوسط في رحلة طويلة، وخلالها كان يتخيل مدن الأندلس ومعمارها، بانتظار أن يرى بعينيه أرضًا وُصفت كالجنة، حيث يتداخل العلم والفن، وتُفتح الأبواب للعقول الواسعة، قابل ايمن بن رشد وأعطاه كتاب يحمل سر خاف عليه من العالم يخص مدينتة "القدس"

يمر وقت ويرجع أيمن إلى القدس.. وهو على مشارف الأربعين يسير وسط الأجواء الفلسطينية حتى انحرف طريقة وجد نفسه يسير في ممرات يبدو كأنها تقوده نحو مكان مجهول، كانت خطواته تشق طريقها بصمت، حتى وصل إلى مكان شبه مهجور حيث توقف الزمن، وظهر أمامه رجل ذو ملامح غامضة يحدق به من الظلال.

- أيمن...

جاء الصوت من الرجل الذي ارتدى جلبابًا طويلًا يلفه غموض، وقد وضع على رأسه حطّة بيضاء، لكنها ملطخة بغبار السفر وكأنه عائد من رحلة طويلة.

- هل جئت تبحث عن سرّ التابوت؟

سأل الرجل بنبرة متأنية، وكأنها تطلق في نفس أيمن آلاف الأسئلة.

أيمن شعر بانجذاب غريب، وكأن الكلمات تحمل معنىً أعمق مما هو ظاهر فهمس بصوت متهدج، وعيناه تحدقان في عيني الرجل التي تتلألأ تحت ضوء القمر الضعيف:

- ماذا تعرف عن التابوت؟

اقترب منه الرجل، ومد يده ليعطيه حجرًا صغيرًا، كان منقوشًا عليه رمز لم يستطع أيمن فهمه وقال

- هذا الحجر هو أول خطوة على الطريق، و سيقودك إلى التابوت... لكن حذارِ، فهناك من يراقبك منذ زمن بعيد"

همس الرجل، ثم اختفى كظل تحت ضوء القمر، تاركًا أيمن في دوامة من الأفكار والفضول والخطر.
عاد أيمن إلى منزله ببطء، وكل خطوة كانت تزيده شعورًا بالغموض والخطر.. وبينما كان يسير، كانت شوارع القدس القديمة تحيط به، وكأنها تراقب كل حركة يقوم بها، وصل أخيرًا إلى منزله، وأغلق الباب خلفه بشيء من الارتباك، ثم أخرج الحجر الغامض الذي أعطاه إياه الرجل في الزقاق.

أمسك الحجر، وبدأ يتفحص النقوش بدقة، محاولًا فك رموزها.. لكن بدا أن الرموز كتبت بلغة قديمة، لغة لم يتعلمها من قبل، وأدرك حينها أن عليه العودة إلى كتاب "ابن رشد" القديم، عسى أن يكون فيه دليل على كيفية فك هذا اللغز.

جلس أيمن على الطاولة، وأخرج الكتاب بعناية..الكتاب كان يبدو عتيقًا وثقيلًا، وكل صفحة كانت تحمل في طياتها سحرًا خاصًا وعبقًا من الماضي.. بدأ بتقليب الصفحات ببطء، وأخذ يقرأ بعض المقاطع التي تتحدث عن الأساطير القديمة، وكيف كان هناك عهد بين الحكماء والأولياء لحراسة أسرار التابوت.

وفي هذه اللحظة، سمع طرقًا خافتًا على بابه..تجمد في مكانه لبرهة، ووضعت يده على الكتاب بتوتر.. من يطرق الباب في هذا الوقت المتأخر؟ تساءل.. ومع تزايد الطرق، قرر أن يفتح الباب ببطء.

وجد "عيسي" أمامه، عينا يوسف تحملان مزيجًا من القلق والحذر.. كان يوسف يرتدي ثوبًا داكن اللون، ومعطفًا متهالكًا يغطيه، يوحي بمظهر شخص قضى الليلة متنقلًا في الأزقة.

قال عيسي بصوت متوتر:

- أيمن، سمعت أنك حصلت على حجر غريب الليلة.

شعر أيمن بشيء من الدهشة والقلق..وقال:

- كيف عرفت عن الحجر؟ ومن أخبرك؟

اقترب عيسي منه، ثم قال بهمس:

- لا يهم كيف علمت.. المهم أن هناك من يسعى خلفك.. التابوت ليس مجرد أسطورة؛ إنه حقيقة تخفي في طياتها قوة عظيمة.. والآن، أنت تملك نصف السر، وأنا أملك النصف الآخر.

تردد أيمن قبل أن يجيبه، ثم قال بصوت خافت:

- وهل تعلم كيف نفك شفرة هذا الحجر؟

ابتسم يوسف ببرود، وأخرج من جيبه ورقة قديمة كتب عليها رموز مشابهة للنقوش الموجودة على الحجر وقال:

- هذه الورقة انتقلت من جيل إلى جيل في عائلتي.. ولكن لفك الرموز بالكامل، نحن بحاجة إلى كتاب ابن رشد الذي لديك.

صمت أيمن لبرهة، ثم أدرك أن ما يحدث ليس مجرد صدفة.. هذه اللقاءات، هذه الرموز، هي رسالة من الماضي لتقودهما نحو شيء غامض وخطير.

وافق أيمن على التعاون مع عيسي.. ولكن في داخله كان هناك صوت يحذره من الوثوق به بالكامل.. ففي مدينة تملؤها الأسرار مثل القدس، لا شيء يبدو كما هو، ولا أحد يظهر على حقيقته.

في الليلة التالية، وبينما كانا يتفحصان الرموز معًا، ظهر "موشيه" بشكل مفاجئ على عتبة الباب، مرتديًا عباءة سوداء وقبعة واسعة تخفي جزءًا من وجهه.. ابتسم موشيه وقال:
- أعتقد أنني وصلت في الوقت المناسب.. لا يمكن أن تظنا أنني سأترككما وحدكما تستحوذان على أسرار التابوت."

هنا، أدرك أيمن أن اللعبة قد أصبحت أعقد بكثير، وأن هناك أطرافًا أخرى تتربص بسر التابوت.
شعر أيمن بقلبه يخفق بشدة، وكأن شيئًا يضغط عليه ليحذره من الخطر الذي يلوح أمامه.. وقف موشيه في المدخل، وعلى وجهه تلك الابتسامة الباردة التي تخفي نوايا مبهمة.

نظر أيمن إلى عيسي.. وبدت علامات التوتر على وجه ايمن.. قال موشيه بلهجة متزنة لكنها حادة:
- أرى أنكما قد بدأتما في تجميع الأجزاء.. لكن لا تنسيا أنني كنت جزءًا من هذا البحث منذ البداية، وأعرف عن هذا الكتاب أكثر مما تتخيلان.

حاول عيسي الرد، لكن موشيه لم يمنحه الفرصة، وتابع قائلاً:
- التابوت، الكتاب، الحجر... كلها قطع متناثرة تحتاج إلى من يملك الشجاعة ليجمعها ويفهمها.. ولدي ما ينقصكما: المفتاح.

ثم أخرج من جيبه مفتاحًا صغيرًا من البرونز، عتيق الطراز، بدا وكأنه مفتاح يعود لعصور غابرة.. نظر عيسي إلى المفتاح بتوتر، ثم همس إلى أيمن:

- إذا حصل موشيه على الكتاب، سيملك كل شيء... سيصبح هو الوحيد الذي يملك الحق في الوصول إلى التابوت.

بدأت الأجواء تتصاعد بالتوتر، ولم يكن في نية أيمن السماح لموشيه بالسيطرة على هذا السر العريق.. لكن قبل أن ينطق بأي كلمة، خطا عيسي خطوة إلى الأمام وقال: "موشيه، ربما تملك المفتاح، لكنك لن تملك الكتاب بسهولة.. هذا الكتاب أمانة، ولن أسلمك إياه دون أن أعرف نواياك."

ابتسم موشيه بخبث، وقال:

- نواياي؟ أريد القوة التي يخبئها التابوت.. أريد أن أكون من يملك الأسرار، ومن يستطيع تغيير مصير القدس.

كان في صوته جشع ورغبة في التحكم، وكأن التابوت بالنسبة له أكثر من مجرد قطعة أثرية، بل مفتاح لتحقيق رغباته.

في تلك اللحظة، همس أيمن لعيسي:

- علينا أن نخرج من هنا... هناك شيء غير مطمئن في نظراته.

لكن قبل أن يتمكنا من التحرك، تقدم موشيه بخطوات سريعة، وفي لحظة مباغتة، أمسك بالكتاب من يد أيمن بقوة وسحبه.. حاول أيمن استعادته، لكن موشيه كان أسرع وأقوى.. رفع الكتاب عاليًا وكأنه ينتصر، ثم التفت وخرج من المنزل قبل أن يستطيعا إيقافه بعد معركة طويلة بينهم.

نظر أيمن وعيسى إلى بعضهما البعض بتوتر وحيرة.. قال أيمن:

- لقد أخذ الكتاب... كيف سنعرف الآن أسرار التابوت؟

لكن عيسى نظر إلى الحجر بيده وقال:

- موشيه قد يملك الكتاب، لكننا نملك الحجر والورقة.. ربما كان الكتاب يحمل أسرار التابوت، لكن الحجر وحده قد يكون المفتاح للوصول إلى المكان الذي يخفيه.

أمضيا الليل في التفكير والتخطيط.. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانا يستعدان للبحث عن خيوط أخرى قد تقودهما إلى التابوت، ظهر فجأة رجل يدعى "يوسف"؛ رجل غريب المظهر، طويل القامة، بملابس بسيطة، وعيناه تحملان نظرة حكيمة وعميقة.

اقترب منهما يوسف وقال: "علمت بما حدث للكتاب.. لا تخافا، فأنا هنا لأساعدكما.. موشيه قد يمتلك الكتاب، لكنه لا يمتلك الفهم الصحيح لمعناه، ولا يعرف كيف يستخدمه."

نظر عيسي إلى يوسف بحذر وسأله: "لماذا تريد مساعدتنا؟ وما الذي تعرفه عن التابوت؟"

أجاب يوسف بنبرة هادئة:

- التابوت ليس كنزًا ماديًا؛ بل هو عهد قديم، وترك ليكون أمانة تحملها القلوب النقية.. كل من يسعى خلفه بنية سيئة لن يتمكن من الوصول إليه."

ثم أكمل:

- لكني أملك خريطة قديمة قد تساعدنا، وأعرف مكان المدخل السري الذي يقودنا إلى التابوت."

تبادل أيمن وعيسي النظرات.. كانت هناك ثقة خفية في صوت يوسف.. وكأن هذا الرجل جاء في اللحظة التي يحتاجان فيها لمن يرشدهما إلى الطريق الصحيح.

قرروا الثلاثة الانطلاق معًا في رحلة إلى أنفاق سرية تحت القدس، حيث يعتقد أن مدخل التابوت مخبأ هناك. كانت الرحلة شاقة، وأجواء الأنفاق تضفي رهبة وغموضًا على المكان.

في نهاية الطريق، وصلوا إلى باب حجري عليه نقوش تشبه تلك التي كانت على الحجر الذي يحمله أيمن.. أدرك أيمن أن هذا الباب هو المدخل الحقيقي، وأن عليهم فك الشفرة الأخيرة.

لكن قبل أن يتمكنوا من فعل أي شيء، ظهر موشيه مجددًا، وبيده الكتاب والمفتاح.. ابتسم بخبث وقال:

- ظننتم أنكم سبقتموني؟ أنا هنا لأفتح هذا الباب بنفسي وانت يا يوسف لن تهدأ أبداً.

اندفع يوسف محاولاً منعه، لكن موشيه كان قد بدأ بالفعل بفتح الباب باستخدام المفتاح والنقوش الموجودة في الكتاب.

وفي لحظة صمت مخيفة، فُتح الباب بصوت مدوٍ، وكشفت خلفه غرفة مليئة بالظلام والأسرار.. تقدم موشيه أولاً، لكن شيئًا غريبًا حدث؛ بمجرد أن عبر الباب، انغلق وراءه، ولم يتمكن أحد من فتحه مجددًا.

نظر أيمن ويوسف وعيسى إلى بعضهم البعض بذهول.. لقد اختفى موشيه داخل الغرفة، ولكن الباب الذي فتحه لم يكن يمكن عبوره من جديد.

بعد أعوامٍ من اختفاء موشيه في تلك الغرفة المظلمة التي حُبست فيها أسرار التابوت، علم ابن موشيه بما حدث لوالده.. كان الابن، الذي نشأ في ظل عظمة اسم والده وتطلعاته، قد تعلم منذ صغره عن قصة الكتاب المفقود والتابوت الذي لم يُكشف سره.. لكن ما كان يجهله هو النهاية الغامضة التي ألمّت بوالده.

في تلك السنوات، تغيرت الأمور في القدس.. كانت المدينة تعيش فترة من الهدوء الذي أعقب الفوضى، لكن الحكايات القديمة عن التابوت بدأت تخرج مجددًا من الظلال.. بدأ الابن، الذي كان يدعى "إلياهو"،

يبحث عن طريقة لاستعادة الكتاب واستكمال ما بدأه والده.. كانت خطته واضحة؛ السيطرة على المدينة أولًا، ثم الوصول إلى التابوت بأي ثمن.

تكلم مع نفسه وقال:

- اذا كان الكتاب هو الطريق إلى التابوت، والكتاب ذهب مع والدي، فلا بد لي من إيجاد طريقة أخرى

كان يفكر في نفسه وهو يتنقل بين الأحياء القديمة في القدس.. كان يعرف أن الوقت قد حان ليعيد طريق والده وأنه لن يقف أحد في طريقه.

مرت الأيام، وكان إلياهو يجتمع مع رجال في الظل، من المتواطئين معه من داخل المدينة، ليخططوا للسيطرة على الأماكن المقدسة والأنفاق القديمة التي يعتقد أن التابوت مخبأ فيها.. لكن كانت هناك عقبة واحدة رئيسية أمامه؛ من يملك الحجر والورقة والمفتاح.

بدأ إلياهو في جمع معلوماته عن أيمن وعيسي، الذين أصبحا معروفين في القدس بعلاقتهما بالكتاب وبحثهما المستمر عن التابوت.. كان يعلم أنه لابد من استخدام أساليب أكثر خبثًا للوصول إلى هدفه.

في أحد الأيام، بينما كان أيمن في مكتبه يستعرض بعض المخطوطات القديمة، وصلته رسالة مشفرة من مصدر مجهول.. كانت تلك الرسالة تنبه إلى تحركات غريبة تحدث في المدينة، وتحذره من أن هناك من يحاول استعادة الأسرار الثلاثة ، وإن كان ليس موشيه نفسه، فإن هناك من يتبع خطواته.

قال أيمن وهو يقرأ الرسالة

- يبدو أن الخطر يقترب منا.

ثم نظر إلى عيسى الذي كان يجلس بالقرب منه وقال:

- علينا أن نكون مستعدين.

لكن المفاجأة كانت أن يوسف، الذي كان يشاركه البحث طوال هذه السنوات، بدأ يظهر عليه علامات القلق.. كان يتحاشى النظر في عيون أيمن، وكأن هناك شيئًا يخفيه.

وفي أحد الأيام، اكتشف أيمن سرًا خفيًا عن يوسف، الذي كان قد تواصل مع إلياهو في السر.. كان يوسف قد حصل على وعد من إلياهو بأنه إذا ساعده في استعادة الأسرار الثلاثة ،فسيتمكن من الحصول على جزء من القوة التي يحتوي عليها التابوت.. كان يوسف، في لحظة ضعف، قد تخلّى عن أمانته وتعاون مع الشخص الذي كان سيأتي في النهاية و يهدد كل شيء وأعطاه الأسرار الثلاثة.

يوسف!" صرخ أيمن وهو يقف أمامه وقال:

- هل كنت تخونني منذ البداية؟

يوسف تراجع قليلاً، وظهرت عليه علامات التردد والندم وعيسي يشاهد المشهد بدموع مبحوحه فقال يوسف :

- لم أكن أريد ذلك، لكن إلياهو وعدني بقوة لم أتمكن من مقاومتها.

في تلك اللحظة، ظهرت حقيقة مؤلمة، أن التابوت لم يكن مجرد مصدر قوة مادية، بل كان رمزًا للقدرة على التحكم في مصير المدينة، بل وفي مصير العالم بأسره.. ولهذا، كانت تلك القوى مغرية لمن يظن أنها ستمنحه السلطة، اختفى عيسى وأيمن ومرت الأيام والشهور .

بدأت المدينة تهتز من الداخل.. كلما اقتربت خطة إلياهو من تحقيق أهدافها، أصبح الوضع أكثر تدهورًا.. في الوقت ذاته، كان عيسى قد عاد إلى الظهور بعد فترة من اختفائه.. كان يحمل معه المعرفة العميقة حول التابوت، وكان عارفًا بأن المعركة النهائية على المدينة ستحدث قريبًا، أخذ يوسف الي بيت أيمن رغم رفض ايمن يوسف قال عيسي بجدية

- أنتما تحتاجان إلى اتخاذ قرار الآن،إلياهو ليس مجرد محتال، إنه يعرف كيف يستخدم القوة التي منحها له الأسرار الثلاثة.. وما إذا كان بإمكاننا إيقافه يعتمد على ما إذا كنا سنختار التعاون أو مواجهة الحرب.

كانت الحيرة تملأ قلب أيمن، لكنه كان يعرف أن كل شيء بدأ يتجمع في نقطة واحدة: الأسرار الثلاثة.. إذا كان يريد إنقاذ القدس، فلا بد له من مواجهة إلياهو، ولكن معركة كهذه لن تكون سهلة بسبب فرق العمر.

بدأت الحكاية الحقيقية في القدس، حيث التقاطع بين الماضي والمستقبل، بين الأسرار التي لم تُكشف بعد والقوى التي ما زالت تخفيها الأرض تحت أقدامهم.. وبدأت أحداث أخرى تتكشف بشكل مريب، ويبدو أن المدينة لم تعد في يد من يظن أنه يملك مفاتيحها، بل هي الآن على حافة تحوّل تاريخي لا يعلم أحد أين ستأخذهم.
بينما كانت الأيدي تحاول أن تمتد نحو التابوت، كان الأمل في العثور عليه يكبر، وكان الصراع على القوة يتصاعد في أرجاء القدس.. لكن رغم كل المحاولات، ظل التابوت غامضًا، لا أحد استطاع أن يكشف مكانه أو يفتحه.. لأن التابوت، كما كان الجميع يجهل، لا يُكشف إلا لقلوب طاهرة، قلوب لم تُلوث بالأنانية والطمع.

كان اليأس يزداد بين أولئك الذين سعوا وراءه. إلياهو، الذي ظن أن بيده الأسرار الثلاثة الذي تمكنه من السيطرة على المدينة، بدأ يشعر بالتعب والإحباط.. لم تكن مجرد الأدوات المادية التي تقوده إلى التابوت، بل كان يحتاج إلى شيء أكثر: النية الصافية، النقاء الذي يعجز الكثيرون عن الوصول إليه.

وفي تلك اللحظة التي كان فيها الجميع يعتقدون أنهم قريبون من النهاية، ظهر عيسى مرة أخرى.. كان يحمل في قلبه أملًا جديدًا، معرفة أن السبيل الوحيد للكشف عن التابوت هو الإيمان بالقيم الحقيقية، قيم الطهارة والنوايا الصافية.

- التابوت لن يظهر لك، إلياهو

قال عيسى بثبات:

- لأن قلبك ملوث بالسلطة والطمع.. إنه ليس مجرد شيء يمكن السيطرة عليه.. إنه اختبار للنوايا.

وأمام الجميع، جلس عيسى متأملًا في السماء، وكأن الكون نفسه كان يعكس ما في قلبه.. بدأ يشرح لهم أن التابوت ليس مجرد كنز مادي، بل هو رمز لحكمة عميقة.. كان يحمل في داخله تاريخًا طويلًا من الرسائل التي يتعين على القلوب الطاهرة أن تفهمها، لا أن تسيطر عليها.

قال عيسى بصوت يبعث على الطمأنينة:

- من يعتقد أن التابوت هو مجرد قوة يخطئ. هو اختبار لأولئك الذين يسعون إليه، من يبحث عن السيطرة عليه، يجد نفسه ضائعًا في ظلمات غامضة."

في النهاية، وبعد أن مر الجميع بمحن وصراعات، أدركوا الحقيقة: التابوت كان مختبئًا لا لأنه بعيد عن الأعين، بل لأنه كان جزءًا من اختبار، اختبار لتطهير القلوب.

لذلك، لم يعثر عليه أحد، لأن الذين سعى وراءه كانوا يحتاجون أولاً إلى فهم أن قلبًا طاهرًا هو المفتاح.. ولم يكن التابوت هو المكافأة، بل كانت الرحلة نحو الطهارة هي ما يجب أن يبحث عنها الجميع.

8- الصندوق الأبيض

أخذ سليم الصندوق بين يديه فى ساحة الأرض الواسعة على حدود لبنان وفلسطين ، يقلبه كما لو أنه يفتح صفحات الماضي.
نظر إلى السماء وقال:

- متى سوف أرى الديار؟
- شجرة الزيتون الكبيرة تحتها يوجد المفتاح، يا صقر..أشعر أن الموت اقترب، يا صغيري، ودورك هو أخذ المفتاح حتى تفتح الصندوق.

فقال صقر:

- ولماذا لا نكسره ونكتشف ما بداخله بدلاً من الانتظار والذهاب إلى القدس؟

قال سليم:

- إذا انكسر الصندوق، انكسر معه الماضي يا صقر.

كبر صقر، ومات سليم في يوم عاصف علي فراشه وهو يحلم بالمفتاح والصندوق.
حزنت الأسرة على فقدان الجد، أما صقر فدخل حجرته وهو يقلب في الصندوق الأبيض، وينظر مثل جدة إلى السماء، وقال:

- سوف أذهب اليوم إلى بيتك يا جدي في القدس.

دخل بهدوء إلى حجرته، أخذ حقيبته، وكتب خطابًا لوالده:

- سأحقق وعد جدي..المفتاح والصندوق يا والدي.

غادر صقر إلى القدس، مرّ عبر حدود الجولان وتم تفتيشه من قبل قوات الاحتلال.
بينما كان يبتسم، نظر الجندي إلى الصندوق وسأله:

- ما هذا؟ وما الذي بداخله؟

فقال صقر:

- لا شيء، مجرد أوراق.

أخذ الجندي الصندوق بين يديه ليقلبه، ولم يجد ما يثير الشك، فأمره بالمرور.

دخل صقر إلى المسجد الأقصى وصلى، ثم قابل الشيخ أحمد، وقال:

- السلام عليكم يا شيخ، أنا حفيد سليم الرباحي.

قال الشيخ أحمد:

- يا الله، كم مرّ من العمر على سليم!

فقال صقر:
- توفاه الله، وأوصاني أن أحضر المفتاح لفتح الصندوق.

ضحك الشيخ أحمد وقال:
- الصندوق أعطاه إياه جده، وأوصاه قبل التهجير والاستيطان واخد أحد الأسر منزله أن يعود إلى بيته ليأخذ المفتاح تحت شجرة الزيتون.. لكن، يا بني، البيت الآن في يد موشيه.

قال صقر:
- إنه بيت أجدادي يا شيخ.

رد الشيخ أحمد:
- سأساعدك، لكن مغامرتك ستكون خطيرة.

موشيه يذهب إلى المعبد"الكنيس" كل يوم سبت ليصلي الشحريث وصلاة القدس ويقرأ التوراة ومعه ابنه رجيه وأحفاده الثلاثة، وهم يرتدون العباءات السوداء، مضفرين شعورهم يتبادلون التسامر وقص القصص لأبنائهم.

ابتسم صقر وعزم على إحضار المفتاح صباح السبت.. جلس صقر في المسجد حتى أقبلت صلاة العشاء وطلب منه الشيخ احمد الذهاب معه إلى داره، بعدة أيام وجد صقر الصغار وهم يحملون الحجار بين أناملهم يلقوها على قوات الاحتلال ويرقصون الدبكة الفلسطينية.

في صباح السبت، عندما بدأ أول ضوء للشمس يشرق على القدس، قرر صقر أن ينفذ خطته، على الرغم من الجهد الذي بذله لإخفاء الصندوق طوال الأيام الماضية، كان يعلم أن لحظة المواجهة قد حانت،حمل حقيبته مع الشيخ أحمد إلى المسجد الأقصى وغادر المسجد بعد صلاة الفجر، وعيناه لا تفارقان الطريق الذي يقوده إلى الحديقة التي يحتفظ فيها موشيه بمفاتيح الماضي.

كانت السماء لا تزال عابقة بصوت الطيور، وصمت المدينة يطغى على الحكايات المجهولة.. لكن في قلب صقر، كان هناك شيء أكبر من مجرد المفتاح: كان حلم العودة.

حلم ليس فقط بجعل الأجداد فخورين، بل أيضًا لتحقيق وعد لم يعد يتعلق فقط بالصندوق أو المفتاح، بل بحرية غائبة عن أرضه.

وصل إلى الحديقة في وقت مبكر جدًا، واختبأ خلف إحدى الأشجار القديمة التي تناثرت أغصانها حول الحائط الذي يقف بجواره موشيه.. كان جندي الاحتلال يراقب عن كثب، لكنه لم يكن يعلم أن صقر قد خطط لأكثر من مجرد التسلل.

بينما كان موشيه يتحرك باتجاه الحائط للعبادة، كان صقر يراقب ، كانت عينيه تتبع كل خطوة، وكل لحظة تمر، وهو يخطط لاستخلاص المفتاح من تحت الشجرة القديمة.. وقبل أن ينحني موشيه ليؤدي صلاته، قام صقر بتحرك سريع واحتفظ بقلبه المحشو بالعزيمة.

وصل إلى الشجرة حيث علم أن المفتاح كان مدفونًا.

قلب قلبه بين يديه وأخرج المفتاح القديم الذي لطالما حلم أن يراه في يدي جده، وبدأ يفكر فيما إذا كان هذا المفتاح يفتح شيئًا ماديًا أم كان مجرد رمز للبقاء.

ولكن فجأة، شعر بشيء غريب صوت خطوات خلفه جعل قلبه يقفز في صدره.
وعندما التفت، وجد موشيه واقفًا أمامه، ينظر إليه بابتسامة عميقة.
- ماذا تفعل هنا، يا صبي؟

لم يكن صقر مستعدًا للمواجهة مباشرة، لكن جواب قلبه كان صريحًا..
- أنا هنا من أجل العودة، من أجل الأرض، مفتاح جدي لا يعود فقط إلى البيت، بل إلى هويتنا.

ضحك موشيه باستهزاء وقال:
- تعتقد أن المفتاح سيعيد كل شيء؟ كل شيء ضاع يا صبي، ونحن أخذنا كل شيء، الأرض ليست ملككم الآن.

لكن صقر بقي ثابتًا، وأجاب بهدوء:
- الأرض ملكنا، كما هو هذا المفتاح، لن نتخلى عن هويتنا مهما حاولتم.

بينما كان موشيه يحاول الضغط عليه، شعر صقر بشيء مختلف.
شعر أن المواجهة كانت أكثر من مجرد كلمات، كانت عن الوجود.
وقبل أن يتمكن موشيه من الرد، فتح صقر الصندوق الأبيض وأخرج منه ورقة قديمة، كان المكتوب عليها ليس سوى كلمة واحدة:
- الحرية

لم يكن الصندوق يحتوي على كنز مادي، بل على وعد قديم.
على الرغم من أنه لم يحقق العودة الفورية، شعر صقر في تلك اللحظة أنه يحمل جزءًا من تاريخ أجداده: الحرية، التي لا يمكن سرقتها.

عاد صقر إلى المسجد بعد أن غادر الحديقة، عينيه لا تفارقان الصندوق.. في قلبه، كان قد فهم أن المفتاح لم يكن ليفتح بابًا ماديًا، بل كان ليفتح بابًا آخر: باب العودة إلى الذات.

في تلك اللحظة، وهو يقف أمام الشيخ أحمد، قال:
- يا شيخ، المفتاح ليس للبيت، المفتاح كان للحرية.

ابتسم الشيخ أحمد وقال:
- نعم، يا صقر، والحرية لا تُسرق، بل تُسترجع.

وفي تلك اللحظة، شعر صقر أنه بدأ رحلة جديدة، رحلة ليست للعودة إلى بيت الأجداد فقط، بل إلى أرضه، إلى حريته، إلى الأمل الذي لا يموت.

9- حكايات في أزقة القدس"

كانت القدس في أربعينيات القرن الماضي أشبه بلوحة فسيفساء حية.. الأزقة الضيقة مرصوفة بحجارة دافئة تحكي قصصًا عبرت عليها أقدام الناس لأجيال.. في الصباح الباكر، كان صوت الباعة يعم السوق القديم، ممزوجًا بعبق التوابل والعطور.
مآذن المساجد وأجراس الكنائس كانت تنادي أبناء المدينة للصلاة، فيما كانت الحياة تمضي في وئام طبيعي.

في ذلك الجو، وُلد إياد، شاب مقدسي فلسطيني، قضى معظم أيامه في محل والده للعطارة.. كان إياد يمتلك فضولًا لا حدود له حول العالم خارج أسوار مدينته، فقد سمع كثيرًا عن بلاد أخرى وعوالم بعيدة تثير أحلامه.
لكنه في الوقت نفسه كان مدركًا لحبّه للقدس، هذا المكان الذي يحتوي كل ما يملكه من ذكريات، وأصوات الحكايات التي يسمعها من الكبار عن بطولات أسلافه وحكمة أهل المدينة. كان يمضي ساعات في تأمل الزبائن الذين يترددون على المتجر، يدرس وجوههم، وكأنه يبحث في قسماتها عن شيء مفقود.

وذات صباح ربيعي دافئ، بينما كان يصفّ البضائع بعناية على رفوف المتجر، دخلت ليلى كانت فتاة جميلة تسكن مع عائلتها في حي قديم بالمدينة.. كان والدها رسامًا مولعًا بجمال القدس وعمارتها، فنشأت ليلى على حبّ الفن ورؤية الجمال في تفاصيل الحياة اليومية.. كانت تقضي وقتًا طويلًا في رسم أزقة المدينة، تجد في انعكاسات الضوء والظل على الجدران العتيقة مصدرًا لا ينضب للإلهام.. لأول مرة دخلت متجر العطارة، حيث كان العطر يملأ الأجواء، وكانت رائحة الأعشاب والأزهار تجذبها كأنها دعوة غير مباشرة لتكتشف هذا المكان.
عندما دخلت ليلى، وقع نظر إياد عليها، ولاحظ في ملامحها فضولًا مماثلًا، وكأنها تبحث عن شيء مألوف في هذا المكان الغريب عنها..طلبت منه مزيجًا من الأعشاب لصنع شاي يساعدها على الاسترخاء بعد ساعات طويلة من الرسم، وجذبتها خبرته وهو يشرح تأثير كل عشب وكيفية تحضيره.. كانت حركته وهو يتحدث مزيجًا من الحماسة والبساطة، ما دفعها للعودة مرة أخرى، لتصبح زبونة دائمة.

مع مرور الأيام، تحولت زياراتها إلى حديث أعمق عن المدينة وحكاياتها.. كان إياد يروي لها قصصًا قديمة سمعها عن الشهداء والأبطال، وعن بئر قديمة قيل إنها تمنح السكينة لمن يشرب منها، وعن ضريح لرجل مقدسي عُرف بالحكمة والكرم.. بينما كانت ليلى تتحدث له عن الفن، عن شغفها بتوثيق الأحياء والأزقة التي يعبرها الناس كل يوم، وعن حلمها بأن ترسم كل تفاصيل المدينة وتظهر في رسوماتها التنوع الذي تحتويه.

كانا يتحدثان لساعات، وكأنهما ينفصلان عن العالم الخارجي.. لم يهتم لاختلافاتهما، بل كانا منشغلين في اكتشاف ما يجمعهما، ذلك الحب لمدينة تضم أديانًا وأفكارًا وعوالم مختلفة.. ومع توالي اللقاءات، نمت بينهما صداقة عميقة سرعان ما تحولت إلى شيء أعمق، إلا أنهما كانا مدركين لحساسية علاقتهما في مدينة تعيش على التنوع والهشاشة معًا.

لكن الحياة كانت تتغير، فقد بدأت التوترات في المدينة تزداد يومًا بعد يوم.. كان الناس يتحدثون عن هجرة كبيرة إلى فلسطين من اليهود، وعن أخبار تلمّح إلى صراع قادم.. كانت شوارع القدس تترقب شيئًا خفيًّا، وبدأت مشاعر الخوف والقلق تملأ أزقة المدينة.

وسط كل هذا، كانت عائلة ليلى تخطط للرحيل بعيدًا عن هذه التوترات المتصاعدة، فيما كان إياد متمسكًا بالبقاء مهما كانت الظروف.. وجدت ليلى نفسها ممزقة بين حنينها لعالم أرادت العيش فيه بأمان، وحبها لإياد، الشاب الذي جعلها ترى القدس بعين أخرى، وأدركت أن عليها اتخاذ قرار حاسم.

ذات مساء، أخبرت إياد عن نية عائلتها في المغادرة إلى أوروبا.. اقترحت عليه فكرة ترك القدس والسفر معها، أن يبيع أرضه ويتخلى عن كل ما يربطه بالمكان، لكن ملامح إياد تغيّرت فور سماعه لكلماتها.. كان يعلم أنها تحبه، لكنها لم تدرك عمق ارتباطه بالأرض.

قال لها بصوت هادئ، رغم أن قلبه كان يعتصره الحزن:

- هذه الأرض ليست مجرد تراب.. هي قصص أجدادي، هي أحلام والدي، هي ماضٍ أنا جزء منه.. إذا غادرت، سأفقد جزءًا من هويتي، وهذا أمر لا يمكنني التخلي عنه حتى لأجلك.

فهمت ليلى في تلك اللحظة أن حبها للمدينة يختلف عن حبه لها.. كانت تراها مصدر إلهام، أما هو فكان يراها وطنًا، جزءًا من روحه.. نظرت إليه، وابتسمت بحزن، ثم أخرجت من حقيبتها لوحة صغيرة رسمتها خصيصًا له.. كانت تحوي تفاصيل السوق القديم، مع ظلال لعشاق يختبئون بين الأزقة، تعبيرًا عن قصتهما التي لن تكتمل.

أخذ إياد اللوحة، وأدرك أنها ستكون آخر ذكرى منها.. غادرت ليلى القدس مع عائلتها، تاركة وراءها جزءًا من قلبها في تلك اللوحة، التي بقيت تزين جدار متجره الصغير.

كلما نظر إياد إلى اللوحة، تذكر حكايتهم، الحكاية التي كانت ممكنة في مدينة تضم كل شيء، لكنها لم تُكتب لها الاستمرارية.. بقي إياد في القدس، يكمل طريقه، يحمل في قلبه حبًا لم يكتمل، لكنه أصبح جزءًا من قصته الشخصية، وجزءًا من حكايات القدس القديمة التي يرويها للزبائن والأصدقاء، ليبقى اسم ليلى ولو في الذاكرة، جزءًا من أزقة المدينة العتيقة.

10- أنفاس إيليا

في تلك القرية الصغيرة التي كانت ترحب ب مسافريها وتحتفظ بذكريات أجيالٍ مضت، عاشت نصرة، امرأة طيبة القلب، سيدة فاضلة وجميلة الروح.. كانت حياتها بسيطة، لكنها مليئة بالمحبة، وأرضها كانت ملاذًا للجميع.. بعد أن فقد أبناء أخوها كل شيء في صراعات ومعارك لم يكن لهم فيها يد، جاءوا إلى بيتها، مع عائلاتهم، يبحثون عن مأوى بعيدًا عن الدمار الذي حل بمنازلهم.. رحبت بهم نصرة بكل حب، فهي لم تعرف يومًا طعم القسوة، بل كانت تسعى دائمًا لتوفير الأمان للجميع.

بدأت الحياة في بيت نصرة تنقلب.. في البداية، كان الجميع يساعد بعضهم البعض، وتعاونوا في شتى الأمور.. كان أبناء اخوها يقيمون في الغرف المجاورة، بينما كانت نصرة تحاول أن تبقي البيت دافئًا مليئًا بالأمل.. ولكن مع مرور الوقت، بدأت التغيرات تتسلل إلى قلب الأحداث..بدأ أبناء اخوها في توسيع أرض نصرة، بحجة أنهم يحتاجون إلى مكان أكبر لتربية أبنائهم، وكانوا يأخذون المزيد من الأراضي المحيطة بمنزلها شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت الأرض التي كانت ملكًا لها وحدها، أرضًا مشتركة.

نصرة كانت تشعر بالأمر، ولكنها كانت دائمًا تتجنب الحديث عنه.. كانت تخشى أن تجرح مشاعرهم، أو أن تثير الخلاف بينهم.. لكنها في ذات الوقت، بدأت تدرك أن ما يحدث ليس مجرد تطور طبيعي؛ كان أمرًا مقلقًا.. كانت تجلس في المساء تنظر من شرفتها، حيث يطل منظر القرية، وتفكر في أيامها السابقة، في الأيام التي كانت فيها هذه الأرض ملكًا لها، قبل أن يتسلل إليها الشعور بالخيانة.

في إحدى الأمسيات، حينما كانت نصرة تعد العشاء مع ابنتها فاطمة، دخل أحد أبناء اخوها، جميل، وهو يبدو عليه التوتر.. نظر إلى نصرة وقال:

- أمي تقول إن الأرض التي في الجهة الشمالية من الحقل أصبحت لنا الآن.. إذا أردنا أن نزرع هناك، سنحتاج إلى تكبير المنزل، أليس كذلك؟

نظرت نصرة إليه بعينين حزينتين وقالت:

- جميل، الأرض هذه كانت ملكي منذ البداية.. كنت أطمح دائمًا أن تبقى كما هي، أن نبني عليها مستقبلًا للجميع، لكني لا أريد أن يحدث شيء يغير من علاقتنا.

لكن جميل، الذي كان متعطشًا للمزيد من الأرض، قال بحسم:

- الأمور تتغير يا عمة نصرة.. لا يمكن أن نبقى هكذا إلى الأبد.. لدينا أطفال، وأنت تعرفين أن الوضع الاقتصادي لا يساعدنا.

سكتت نصرة للحظة.. كانت تعلم أن هذا التغير كان مجرد بداية.. بدأت ترى في عيون أولاد اخوها رغبة في التوسع والسيطرة.. ولكنها كانت تخشى من المواجهة، وكان قلبها يعتصر ألمًا.. فقالت :
أعلم، ولكن هل من الضروري أن نأخذ كل شيء؟ هناك حدود لما يمكنك فعله.. الأرض هذه ليست مجرد تراب، إنها جزء من ذاكرتنا.

ولكن الأمور بدأت تتفاقم بشكل أسرع مما توقعت.. عندما أصبح أبناء اخوها يرفضون مغادرة الأرض أو المشاركة في العمل المشترك في الأرض، بدأت الخلافات تظهر جليًا.. كان سامي، ابن أخوها الأوسط، لا يتوقف عن الشكوى، بينما كانت زوجته مها تضغط عليه لشراء المزيد من الأراضي.

فاطمة، ابنة نصرة، التي كانت تراقب الوضع بصمت، قالت في أحد الأيام لوالدتها:
- أمي، الأمر بدأ يخرج عن سيطرتنا.. لماذا لا نطالبهم بأن يعودوا إلى حالهم كما كانوا؟ لماذا يجب أن نسمح لهم بأخذ كل شيء؟

نصرة، التي كانت تسعى للحفاظ على الهدوء، ردت بصوت ضعيف:
- أعلم يا فاطمة، لكن لا أريد أن أسبب شقاقًا بيننا وبينهم.. نحن عائلة، وهذا ما يجب أن يبقى بيننا.

ولكن الخلافات التي كانت تتسرب إلى بيت نصرة لم تقتصر على الأرض فقط، بل أصبحت تتغلغل في العلاقات الإنسانية أيضًا.. بدأت الفتن تدب بين أبناء أخوها.. كان موسي وهو أصغرهم، يقول لأبناء نصرة:
- أنتم لا تقدرون ما نفعله.. نحن من يزرع الأرض، نحن من يقوم بكل العمل.. ولا نرى أي تقدير منكم.

وكان أحمد، أحد أبناء نصرة، يرد:
- نحن نقدر ذلك، ولكننا لا نريد أن تُسرق منا كل شيء.. الأرض ملك لنا جميعًا، وليس فقط لكم.

ومع كل محاولة للاحتكام إلى العقل، كان الوضع يزداد تعقيدًا.. ومع تزايد التوتر، تحرك أولاد أخوها بشكل غير مسبوق.. فجأة، وجد أبناء نصرة أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه.. كان الصراع بينهم يدور حول من يملك الحق في الأرض، ومن لديه الأحقية في تحديد مصير البيت الذي جمعهم في يوم من الأيام.

في ليلة مظلمة، وفي غياب نصرة، تجمع أبناء أخوها في المنزل، وبدأوا في الحديث بصوت عالٍ:
- لماذا نسمح لهم بأن يتحكموا في كل شيء؟"
قال موسي، وهو يقف أمام الجميع..
- لقد حان الوقت لتكون لدينا الأرض كلها، ولن نسمح لهم بطردنا.

وفي تلك اللحظة، بدأت الفتنة تنتشر بين الأبناء، وكل منهم كان يعتقد أنه على حق.. اندلعت المشاحنات بين أبناء نصرة وأبناء إخوتها، لدرجة أن الأمور أصبحت غير قابلة للتسوية.. وبحلول الفجر، كان كل شيء قد تغير.. بعضهم غادر، وآخرون شُردوا، والدموع كانت تملأ أعين الجميع.

أما نصرة، فقد كانت بين نارين.. قلبها كان يتألم لرؤية العائلات التي أحبّت بعضها تتحارب على قطعة أرض، ولكنها كانت تعلم في أعماقها أن هذا الانقسام كان حتميًا.. وعندما شاهدت أبناءها يغادرون، وخاصة خالد الذي قرر الرحيل للبحث عن حياة جديدة بعيدًا عن صراع العائلة، شعرت بمرارة البعد.. لكنها كانت تعلم أن الخيارات كانت محدودة.

ولكن في هذا الموقف العصيب، كان هناك شيء غير متوقع.. قررت فاطمة، ابنة نصرة، أن تبقى، لكنها لم تكن وحدها.. قررت أن تحتفظ بالأرض التي كانت تعدّها موطنًا لها ولعائلتها.. تبنت فاطمة، التي كانت تحمل قلبًا أكبر من سنها، قرارًا جريئًا: البقاء في الأرض التي بدأت تضيع منها، وتحمل مسؤولية الحفاظ على إرث نصرة.

واستمر الحزن يملأ قلب نصرة، فقد فقدت جزءًا من عائلتها، ورغم أنها حاولت أن تجد حلاً يجمعهم مجددًا، كانت تدرك أنه لا شيء يعيد تلك الأيام.. لكن فاطمة، بإصرارها، أثبتت لها أن الحب لا يموت حتى وإن ضاع جزء من القلب..ومع مرور الأيام، كانت نصرة تراقب فاطمة، التي أعادت بناء جزء من الماضي المفقود، وأصبحت الأرض أكثر من مجرد قطعة من التراب؛ أصبحت ذاكرةً حية، لا ينتهي تأثيرها مهما تفرقت الأقدار.

أما عن نصرة، فقد وجدت الراحة في معرفة أن فاطمة لن تسمح لتلك الأرض أن تضيع في رياح الزمن، بل ستظل رمزًا للصمود في وجه الفتن والخراب.

11-شهادة صمود

في أواخر عام 1947، وقبل أن تندلع الحرب بشكل كامل في فلسطين، قرر حسن أبو زيد، الرجل الحكيم من فلسطين، السفر مع عائلته إلى القدس لزيارة أهل زوجته.. كانت الزيارة عائلية بسيطة، تهدف الابتعاد عن ضجيج الحياة وأحداث الزمن التي كانت على وشك الانفجار.

كانت القدس بمثابة المنزل الثاني لزوجته، وقد نشأت فيها وعاشت بين أحيائها العتيقة.. وبالرغم من أن حسن كان من فلسطين، إلا أن الزيارة لمدينة القدس كانت تحمل أهمية خاصة في قلبه، حيث كانت بداية فصل جديد في حياة أسرته.

لكن مع بداية عام 1948، ومع تصاعد الأوضاع في فلسطين، قرر الأب حسن أن يظل في القدس بعدما شعر بضرورة أن يبقى في تلك الأرض، ليكون جزءًا من القتال ضد الاحتلال الذي بدأ يزحف نحو المدن الفلسطينية.. كان يحمل في قلبه شغفًا وحبًا لفلسطين، وفي ذهنه قناعة أن الحرب قد تكون قد بدأت، ولكن القتال من أجل الأرض والكرامة هو ما يجب أن يستمر.

وفي القدس، حيث كان الوضع يزداد توترًا، انضم إلى صفوف المقاومة إلى جانب زوج أخته، الذي كان يقاتل بشجاعة في تلك المعركة.. استشهد حسن أبو زيد في إحدى المعارك بالقرب من القدس، مع زوج أخته وابنائه، الذين استشهدوا معه في تلك اللحظات الحاسمة.

بعد استشهاد حسن أبو زيد، عاش أولاده مع أمهم في القدس، محاطين بجو من الحزن والألم، ولكنهم كانوا أيضًا يحملون في قلوبهم إرثًا من الشجاعة.. كانت أمينة، ابنة حسن، لا تزال في سن صغيرة عندما فقدت والدها، لكن حكاياته عن والدها، كانت تملأ حياتها بالمعاني.

مرت السنوات، وفي ظل الاحتلال والصراعات المستمرة، نشأت أمينة وهي تحمل في قلبها ذكرى والدها، الذي ضحى بحياته في سبيل الوطن.. ومع مرور الوقت، التقت أمينة بشاب فلسطيني يُدعى جمال..
كان جمال قد نشأ في غزة، لكن عائلته تركت القطاع بعد أحداث 1948، حيث غادروا إلى القدس مثل العديد من الفلسطينيين الذين شردتهم الحرب.

تطورت العلاقة بين أمينة وجمال، حيث جمعتهما مشاعر مشتركة عن الأمل.. كانت أيامهما مليئة بالأحاديث عن القدس وفلسطين، والعديد من القصص التي سردها حسن، والد أمينة، عن شجاعة أهل غزة.. في أحد الأيام، وفيما كانا يسيران معًا في شوارع القدس القديمة، قالت أمينة بصوت منخفض:

- كنت أسمع عن أبي الكثير، ولكنني كنت صغيرة جدًا لأفهم تضحياته.. ولكن اليوم، عندما أرى كم هو الصراع مستمر، أدرك أن كل شيء في حياتنا كان مرتبطًا بتلك اللحظات التي ضحى فيها والدنا.

أجاب جمال وهو يبتسم بحزن:

- أنه ليس مجرد تاريخ، بل هو أرواحنا، وأرواح الذين سقطوا من أجل أن تبقى على أرضنا.. أبي كان أحدهم، وكل واحد منا يحمل قطعة من تلك الأرض في قلبه.

تبادل الاثنان النظرات، وكأن كل كلمة تقال بينهما تحمل جزءًا من تاريخ أجدادهم.. كان الحديث عن الماضي والذاكرة المشتركة ربطًا قويًا بين أمينة وجمال، إذ أدركا معًا أن ما يواجهنا اليوم هو امتداد لصراع قديم، وأن لا سبيل أمامهم سوى الاستمرار في الحفاظ على ذكرياتهم وكرامتهم.

مع مرور الأيام، بدأ جمال يشعر بحمل ثقيل على قلبه بعد استشهاد والده.. لكن في الوقت نفسه، كانت مشاعر الشوق والألم تتسلل إليه كلما تذكر أمينة، التي أصبحت تشارك كل حلم وكل أمل في يوم قد تتحقق فيه العودة إلى الوطن.

في لحظة حاسمة، قرر جمال أن يقول لا .. ولكن الأحداث تعقدت بسرعة، ووقع في الأسر بعد معركة ضارية.. أمينة، التي كانت تتابع كل ما يحدث في المدينة، قررت أن تخاطر بكل شيء من أجل جمال وتنتظره.

بعد عشرون عامًا من الأسر، عاد جمال إلى القدس.. كانت المدينة قد تغيّرت بشكل جذري، لكنها بقيت في قلبه كما هي، القدس، التي كانت تحمل في شوارعها ذاكرة الشهداء والمقاومين.

مشى جمال في أزقة المدينة القديمة، وكان كل شيء حوله يذكره بالنكسات والهزائم.. وصل إلى المسجد الأقصى، فوقف هناك للحظة، كما لو كان الزمن قد توقف في تلك اللحظة.. لكنه شعر بشيء غير مألوف، كان الغضب يعصف بقلبه.. القدس، وقال:

- كيف لهؤلاء أن يدنسوا هذا المكان؟!

همس في نفسه، وهو يرى مشاهد اجتياح المسجد الأقصى وكيف دخلوا إلى المكان المقدس بلا رحمة، وكأنهم اقتحموا ليس مجرد جدران، بل روح الأمة.

ثم توجه إلى كنيسة القيامة، فوجد مشاهد غير مستساغة أيضًا.. ، كما هو حال باقي الأماكن المقدسة في القدس، قد تحولت إلى محور صراع.. لم يكن غضب جمال فقط من مشهد الدمار الذي لحق بل مما يعكسه هذا الحدث من مسح للذاكرة التي كانت تحيا في هذه الأماكن. كيف للمدينة أن تتحول إلى ساحة للصراع؟ كيف كانت القدس، التي كانت تجسد رموزًا للسلام والوحدة بين الجميع، قد أضحت شاهدًا على العنف؟

بينما كان يراقب كل ذلك، شعر بقلوب الشهداء تتناثر حوله في أرجاء المدينة.. كانت الحيرة تملأ قلبه، لكن الغضب كان هو الشعور الأقوى.

تذكر تلك اللحظات التي كان يحلم فيها مع أمينة بالعودة إلى القدس، ليروا المدينة كما كانت، حرة، سالمة من التدمير والاحتلال.. اليوم، جمال أصبح يرى في كل زاوية من هذه المدينة، جزءًا من الجرح الذي لا يلتئم بسهولة.

حاول أن يتمالك نفسه، لكن الغضب الذي كان يشعر به كان واضحًا في صوته. همس:
- لا يمكن لهذه المدينة أن تُهزم، لن يمحو الزمن معركتنا.

ومع كل خطوة كان يخطوها في شوارع القدس، كان جمال يدرك أنه يجب أن يستمر، حتى وإن تغيرت الأرض حوله.. الأرض لا تموت، كما أن القدس ستظل حية في الذاكرة والقلوب، طالما أن هناك من يثور من أجلها.
بدأ جمال يبحث عن أمينة في الوجوه حتى لفت انتباهه شاب يافع يحمل بعض الطعام وهو يسير في الأزقة الضيقة.. اقترب منه الشاب وقال:
- أنت جمال؟

نظر جمال إلى الشاب وهو يتفحصه، ثم أجاب:

- أنت أخو أمينة؟

قال الشاب، الذي يدعى علي، وهو سعيد لدرجة أنه لم يتمالك نفسه من الفرح حتى كاد أن يبكي: "أمينة تنتظرك يا جمال.. رفضت أن تعيش بدونك.. حاولت كثيرًا أن تراك، ولكن محاولاتها باءت بالفشل.. آسف يا صديقي على موت والديك وإخوانك."

فقال جمال، وهو يبكي: "كيف حدث ذلك؟"

أجاب علي وهو يتنهد:
- لا أعرف كل التفاصيل، ولكن أمينة تنتظرك.. تعال الآن، وسوف تروي لك أمينة ما حدث.
سار جمال، والدموع تملأ عينيه الزرقاوين، حتى توقف أمام دار أمينة.. سمع صوت أمها المتهالك، لقد أضاف الزمن للعجز ضعفًا ودفئًا في آن واحد.

دخل مسرعًا إلى البيت، كانت أمينه تجلس على الأرض تصلي وتتعبد وتدعو لجمال بفك أسره فى حجرتها.. قال علي بصوت عالٍ حتى تسمعه أخته:
- افتحي يا أمينة، جمال خرج!

سلمت أمينة حامدة ربها، ثم ركضت كالطفلة نحو جمال.. نظر إليها، فوجد الدموع في عينيه، فبكت وقالت:

- ادخل يا جمال.

جلس جمال على الأريكة، وقالت له:

- أمي فقدت السمع والعقل، تتوه في الملكوت، وأخي على ما تبقى لنا.

نظر علي إلى جمال بشفقة، ثم بدأت أمينة تقص عليه ما حدث بعد أسره.. قالت:
أصر والدك وإخوتك للدفاع عن أرضهم حتى استشهد الثلاثة.. سمعت أمي عليا الخبر، فوقعَت مغشيًا عليها.. أخذتها هنا لرعايتها حتى توفاها الله.. يشهد الله يا جمال أنني لم أتركها مرة واحدة، كنت أفعل معها ما أفعله الآن مع أمي.

وبعد لحظات، نزلت دموع أمينة، فمسح جمال دموعها، ثم سحب يده بخجل.. فقالت أمينة:

- لم يبق لي في هذا العالم غيرك أنت وعلى وأمي، هل تقبل أن أكون زوجتك؟

رد جمال على أمينة:

- إنه لكرم منكِ أن تعرضين علي هذا الطلب يا أمينة.. حبك لي هو الأهل الذين فقدتهم.. لن أتركِكِ أبدًا، سأكون سيدًا لكِ لا عليكِ.

ابتسمت أمينة، ثم توجه جمال نحوها وقبل يد أم أمينه، وهي تبتسم كطفلة تائهة، وضحك على وهو فرحًا ومبتسمًا لأخته، التي كانت أمينة على قلبها.

12- ليالي أكتوبر

كانت كل صور عدد المجلة الإخبارية رائعة، إلا صورة واحدة كانت مخيفة.. في تلك الصورة، كان هناك رجل يحمل بين ذراعيه طفلة صغيرة في عمر الزهور، وكان مكتوب تحت الصورة:

- معاناة غزة

هذه الصورة أعادت إلى ذهنه ذكرى حبيبته مريم، تلك التي كانت تملأ حياته بالابتسامات وتجعله يشعر بقدرة التحمل التي يحتاجها أهل غزة.

كان عبد الرحمن جالسًا في قاعة المحاضرات، ينتظر دخول الدكتور شوقي، أستاذ علم المصريات، وكانت صورة مريم وسط النيران تراوده، وكان يفكر كيف كانت غزة قبل هذا التوتر الكبير في أكتوبر 2023.

كانت الحياة اليومية هناك أشبه بمعركة صامتة، حيث كانت الشوارع تضج بالأطفال الذين يلعبون رغم انقطاع الكهرباء لساعات طويلة، كأنهم يقاومون العتمة بضحكاتهم، والأسواق كانت مكتظة، لكن البضائع شحيحة، وكل شيء مرهون بالامدادات المتقطعة عبر المعابر.

عشق عبد الرحمن ابتسامة مريم الهادئة، وتعلم منها عدم ترك فرض في الصلاة.. كانت تتصل به عند صلاة الفجر، وتصرّ أن يصلي، كأنها كانت تجلب له من إصرار أهل غزة على الحياة.. يشعر الآن بالشرود، ويتخيلها تجتاز أزقة غزة القديمة، تمشي بجوار الحوانيت الصغيرة التي تعرض سلعها القليلة و تمُرُّ بجوار الجامع العمري، الذي يعتز به أهل غزة كرمز للتراث الإسلامي العريق، بني هذا المسجد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ليكون شاهدًا على تاريخ طويل من الصمود والإيمان، كان المسجد يتباهى بمئذنته العالية التي تلامس السماء، والتي تطل على المدينة القديمة بأزقتها الضيقة، وكأنها حارسة لذكريات الماضي، جدرانه المصنوعة من الحجر القديم، المزخرفة بنقوش إسلامية دقيقة، كانت تحكي قصة حضارة تفاعلت مع الزمن، داخل المسجد، كانت روائح الزهور تتناغم مع رائحة المسك، والأنوار تتسرب من النوافذ المربعة، لتسقط على الأرض وتضفي على المكان قدسية وسكينة، كان المصلون يتجمعون هناك كل يوم، والهدوء يعم الأجواء، بينما كانت مريم تقف هناك، ترفع يديها بالدعاء لأحبائها، ولأهلها الذين كانوا يواجهون المعاناة والصعاب، كما كان صوت أذان الفجر يتناغم مع صمت المدينة، ويحث الجميع على الصلاة والتقوى.

قطع صوت الدكتور شوقي شروده، وسأله:

- عبد الرحمن، ماذا بك؟ تبدو شارد الذهن." تردد للحظة ثم قال بصوت منخفض: "لا شيء، فقط متعب قليلاً.

نظر إليه الدكتور بقلق وقال:

- تعال بعد المحاضرة لنتحدث.

بعد انتهاء المحاضرة، انتظر عبد الرحمن الدكتور شوقي الذي لاحظ قلقًا كبيرًا في ملامحه، فسأله عما يحدث.. قال له عبد الرحمن:

- مريم، خطيبتي في غزة، لم أتمكن من سماع أخبارها منذ أيام، والحدود أُغلقت تمامًا، وأنا عاجز عن الوصول إليها.

كانت كلماته ثقيلة و مشوبة بالأسى.. ابتسم الدكتور شوقي وقال:

- سأرى ما يمكنني فعله، يا عبد الرحمن، لكن عليك أن تركز على أبحاثك في الوقت الحالي، فموعد مناقشة بحثك قد اقترب.. أتعلم كنت أتساءل دائمًا لماذا تدرس علم المصريات؟ رغم أنك طبيب، لكنني أدركت الآن أن بداخلك تساؤلات كثيرة ومصير محتوم بكونك طبيب، مما جعلك أفضل تلاميذي يا عبد الرحمن.

لم يتمكن عبد الرحمن من الرد إلا بابتسامة صغيرة، لكن كلمات الدكتور حملت إليه بعض الأمل.

بعد يومين، رن هاتف عبد الرحمن في الصباح الباكر، وكان المتصل الدكتور شوقي.. قال له بلهجة جادة:

- عبد الرحمن، وجدت لك طريقة للسفر إلى غزة.. هناك قافلة طبية ستنطلق غدًا، ويمكنك أن ترافقها كطبيب متطوع.

لم يتمالك عبد الرحمن نفسه من الفرحة، وشكره من أعماق قلبه، ونسي تمامًا مناقشة الرسالة، لكنه علم أن الدكتور ساعده في تأجيل المناقشة للعام المقبل.. جهّز نفسه في أسرع وقت، وحصل على إجازة مفتوحة من المستشفى، وأخبر والدته التي باركت له سفرًا آمنًا.

عند وصوله إلى غزة ضمن القافلة، لم يتمكن عبد الرحمن من هول المشهد.. كانت الشوارع التي أراها سابقًا مليئة بالحياة مغطاة بالغبار والحطام، والوجوه التي صادفها هنا تفيض بالألم، ومع ذلك كان الأطفال يواصلون لعبهم في الأزقة الضيقة، والعائلات تبذل قصارى جهدها لتستمر.

دخل مع زملائه إلى المستشفى الميداني، وكان الوضع في غاية الصعوبة.. المعدات كانت قليلة، والأعداد الكبيرة من المصابين تتزايد كل ساعة.

بدأ عبد الرحمن بالتنقل بين المرضى، يعالج الحالات الحرجة، حتى رأى طفلًا صغيرًا يُدعى سعود، كان مبتور القدم، وأخته الصغيرة تبكي بجواره ودموعها تلمع كاللآلئ في عينيها..اقترب منها، وحاول أن يهدئها، لكنها نظرت إليه بحزن وقالت:

- أرجوك، لا تترك أخي." كانت كلماتها تذكره بمريم، تلك التي أتى من أجلها، لكنه الآن شعر وكأنه هنا من أجل كل هذه الأرواح الصغيرة.

بينما كان يبحث عن مريم بين الوجوه، دخل رجل يعرفه، والد مريم.. شعر نبض قلبه يتسارع، واندفع نحوه قائلًا:

- عمي، أين مريم؟"

كانت الإجابة مثل طعنة في قلبه، إذ رأى شقيق مريم، قاسم، يحملها بين ذراعيه وقد أصابتها شظية.. نظرت إليه مريم بعينيها اللتين كانت تستمد منهما القوة، وقالت:

- عبد الرحمن، أتيت من أجلي؟"

لم يتمكن من الحديث، فقط كانت دموعه تتساقط دون أن يستطيع إخفاءها.

في لحظاتها الأخيرة، قالت مريم بصوت خافت:

- ابقَ هنا، كن عونًا للجميع، لا تتوقف حتى تلقاني.

كانت هذه آخر كلماتها قبل أن يغمض الموت عينيها إلى الأبد.

بعد رحيل مريم، أصبح المستشفى الميداني أشبه بمنزل.. قرر عبد الرحمن أن يبقى هناك، محاولًا إنقاذ كل من يحتاج إلى المساعدة.. وبينما الأيام تتوالى، دخلت طفلة صغيرة شاردة تبحث عن عائلتها.. اقتربت منه وقالت:

- أبي، هل ستتركني هنا؟" أمسك بيدها وقال: "لن أتركك أبدًا، يا مريم.

بدأ عبد الرحمن يعمل كأب لهذه الطفلة الصغيرة، التي أعادته إلى ذكريات حبيبته مريم، وبدأ يشعر أنه في مهمة لمساعدة كل من يواجه هذا الألم والمعاناة.. ثم جاءت اللحظة التي لا تُنسى؛ حين اجتمع الجميع على صوت صراخ مرعب، واندلعت النيران في المستشفى الكشفي.. كانت النيران تلتهم كل شيء بلا رحمة، كأنها تأخذ معها كل أمل وكل لحظة أمان.. كانت الحوائط تتفجر من شدة اللهب، وأصوات الأبواب المشتعلة تتداخل مع صراخ المرضى.. وبينما كانت ألسنة اللهب تلتهم المكان، تذكر عبد الرحمن مريم، وكل لحظة ضاع فيها الزمن، وكل كلمة لم يتمكن من قولها لها.. أدرك أن وجوده هنا لم يكن فقط لأجلها، بل لأجل رسالة الإنسانية التي تركتها في قلبه، تلك الرسالة التي علمته أن الألم ليس النهاية، بل هو بداية ما لا يُقال.

عاد عبد الرحمن إلى مصر مصابًا، وحروق كبيرة في يديه جعلته غير قادر على مواصلة العمل أو المساعدة في الوقت الحالي.. لكنه عاد بروح مليئة بالأمل والإصرار، وأدرك أن التوقف ليس خيارًا، بل مرحلة مؤقتة.. عندما يتعافى، سيعود من جديد، ليكون حيث يجب أن يكون.. أصبحت غزة جزءًا منه، وعندما تستعيد تلك الوجوه المترقبة تحت وطأة الحصار، وتلك الذكريات التي لا تُمحى، شعر عبد الرحمن أنه لم يعد وحده.. رسالته الآن لم تعد فقط صوتًا شخصيًا، بل أصبحت تحمل أصواتهم، كصدى باقٍ يتردد بين جدران قلبه، يذكره كل يوم أن الإنسانية هي ما يبقى بعد أن يختفي كل شيء آخر.

تمت بحمد الله